هل تمّ بقدرة كفار مكة وقوتهم ؟ لا . ان ذلك لم يتم الا بارادة الله تعالى التى أذنت للمصطفى صلى الله عليه وسلم فى الخروج من مكة والهجرة . واليك هذا الحديث من صحيح البخارى[1] عن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قالت : لم أعقل أبوىّ الا وهما يدينان الدين ولم يمر عليهما يوم الا يأتينا فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم طرفى النهار بكرة وعشية . فبينما نحن جلوس فى بيت أبى بكر فى نحر الظهيرة قال قائل هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ساعة لم يكن يأتينا فيها ، قال أبو بكر : ما جاء به فى هذه الساعة الا أمر . قال : إنّى قد أذن لى بالخروج » .

وبما أن الخروج من مكة موافق لما يتمنّى مشركو مكة فقد نسب اليهم الاخراج ، كما جاء فى الآية الكريمة وفى الحديث النبوى الشريف . فهذا ورقة بن نوفل يقول للنبى صلى الله عليه وسلم[2] : « يا ليتنى فيها جذعا ، ليتنى أكون حيّا اذ يخرجك قومك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أوَ مخرجىّ هم ؟ قال نعم » .

أما استفزاز المصطفى صلى الله عليه وسلم فبارادة الله تعالى لم يحدث ، لأنه عز وجل لم يشأ استئصال شأفة مشركى مكة ، ولو شاء لتمّ الاستفزاز .

ومعنى القول « خلافك » من قوله تعالى : ﴿ واذن لا يلبثون خلافك الا قليلا ﴾ خلفك وبعدك . لقد جرت سنة الله تعالى حينما يطرد قوم رسول الله تعالى اليهم ويستفزونه من الأرض ألا يمكثوا بعده فى تلك الأرض الا وقتا قصيرا جدا . جاء مثلا فى سورة يس[3] بشأن قوم حبيب الذين قتلوا هذا الرجل الناصح الأمين قوله تعالى : ﴿ وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين . ان كانت الا صيحة واحدة فاذا هم خامدون . يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول الا كانوا به يستهزئون ﴾ .

وحيث ان الصعاب التى يتعرض لها صلى الله عليه وسلم فى سبيل هذا الدين لا يكاد يأتى عليها حصر ، فينبغى أن يكون ثمة الملاذ الذى

---

(١) ٨ / ٢٦
(٢) صحيح البخارى ، ١ / ٤
(٣) آيات ، ٢٨ — ٣٠

يلجأ اليه دائما وأبدا • وكان ذلك فى الصلاة التى جعلت قرة عين المصطفى صلى الله عليه وسلم كما جاء فى الحديث والتى هى عماد الدين. ويكفى أنها قد فرضت فى السماوات ليلة الاسراء والمعراج ، والتى هى الركن الثانى من أركان هذا الدين ، والتى يكون المرء حينما يؤديها حق الأداء أقرب ما يكون الى ربه • لقد وجهت سورة الاسراء المصطفى صلى الله عليه وسلم إلى الصلاة حيث الإحساس الأكبر بالقرب منه عز وجل والتعبير الأبلغ عن الضعف والعجز وقلة الحيلة والافتقار الى رحمة أرحم الراحمين • قال تعالى خطابا للمصطفى صلى الله عليه وسلم : ﴿ أقم الصلاة لدلوك الشمس الى غسق الليل وقرآن الفجر ان قرآن الفجر كان مشهودا • ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا ﴾ •

قيل فى دلوك الشمس إنه غروبها وقيل إنه زوالها • وقيل عن اللام من « لدلوك » إنها تفيد السببية ، أى بسبب غروب الشمس أو بسبب زوالها • وقيل إنها بمعنى بعد ، أى بعد غروب الشمس أو بعد الزوال • وقد جاءت اللام بمعنى بعد فى قول متمم بن نويرة يرثى أخاه مالكا :

فلما تفرقنا كأنى ومالكا لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

أى بعد طول اجتماع ، ومنه : كتبته لثلاث خلون من شهر كذا[1] •

والغسق : سواد الليل وظلمته • والتهجد : الاستيقاظ للصلاة[2] : « وتهجد هنا : تفعل بمعنى الإزالة والترك ، كقولهم تأثم وتحنث ترك التأثم والتحنث • ومنه تحنثت بغار حراء ، أى بترك التحنث[3] وشرح بلازمه وهو التعبد »[4] • فالتهجد إذن ترك الهجود آي النوم ، للصلاة[5] وقد قال ابن الأعرابى : هجد الرجل صلى من الليل وهجد نام بالليل[6] فهو من الأضداد •

---

(١) البحر المحيط ٦ / ٧٠
(٢) البحر المحيط ، ٦ / ٦٨
(٣) أى التأثم .
(٤) البحر المحيط ٦ ٧١
(٥) أنظر ص ٧١ من البحر المحيط .
(٦) البحر المحيط ٦٨

وواضح أن الكلام عن الصلاة شامل لكل من صلاة الفرض وصلاة النفل • ومع أن الخطاب موجه أساسا للمصطفى صلي الله عليه وسلم ، إلا أنه شامل لكل أفراد الأمة المحمدية • وقد بينت السنة المطهرة تفاصيل الصلوات مكتوبها ونفلها •

ويبدو أن الجانب الخاص في الآية الكريمة بصلاة النفل أقرب تناولا اذ أنه ينص على صلاة التهجد ، أى صلاة التنفل آخر الليل بعد نوم أول الليل غالبا • قال تعالى : ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك ﴾ وانما نصت الآية الكريمة على صلاة التهجد بالذات ، لأن ما يلابسها من هدوء الليل وسكون الأحياء ، مما يجعل النفس أكثر استعدادا للقرب منه عز وجل ، والقلب أكثر إقبالا عليه جل وعلا ، والجوارح أكثر نشاطا للعبادة وحيوية • كل ذلك طمعا فى رحمة أرحم الراحمين وعفوه وخوفا من عذابه وسخطه • وقد أثنى الله تعالى فى كتابه العزيز على عباده المؤمنين الذين يعبدونه عز وجل حق العبادة والناس نيام • قال عز من قائل[1]: ﴿ انما يؤمن بآياتنا الذين اذا ذكروا بها خروا سجدا وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون • تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون ﴾ وقد كان المصطفى صلى الله عليه وسلم ليصلى حتى ترم قدماه أو ساقاه فيقال له فيقول : أفلا أكون عبدا شكورا[2] • وقد أنزل الله تعالى فى ذلك قوله[3] : ﴿ طه ، ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ، الا تذكرة لمن يخشى ﴾ وقال تعالى فى سورة المزمل[4] : ﴿ يا أيها المزمل ، قم الليل الا قليلا • نصفه أو انقص منه قليلا • أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا ﴾ وقال تعالى فى السورة ذاتها[5] : ﴿ ان ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرأوا ما تيسر من القرآن • علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون فى سبيل الله فاقرأوا ما تيسر منه وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا

---

(١) السجدة ، ١٥ ، ١٦
(٢) صحيح البخارى ، ٦٣/٢
(٣) طه ، ١ — ٣
(٤) آيات ، ١ — ٤
(٥) آية ، ٢٠

الله قرضا حسنا • وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله ان الله غفور رحيم ﴾•

وحينما نعلم أن الصلاة انما فرضت أثناء العروج بالمصطفى صلى الله عليه وسلم الى السماوات العلى ليلة الاسراء ، نتبين أن حديث سورة الاسراء عن الصلاة ، يعنى الحديث عن معلم بارز من معالم الإسراء والمعراج • وحينما نعلم أيضا أن المصطفى صلى الله عليه وسلم قد جُعلت قرة عينه فى الصلاة ، نتبين نزول هذا الحديث عن الصلاة بردا وسلاما على قلب المصطفى صلى الله عليه وسلم الذى كان يلاقى من كفار مكة آنذاك كل عنت واضطهاد • لقد بينت السورة الكريمة بالصلاة العلاج الناجع لما يصادفه صلى الله عليه وسلم وكيفية التصدى للصعاب ، وينبغى أن تتأسى به أمته عليه الصلاة والسلام •

واذا كانت ثانية الآيتين تحدثت عن صلاة النافلة ليلا ، فهل تحدثت أولى الآيتين عن كل الصلوات المفروضة أو عن بعضها ؟ من العلماء من ذهب الى أن الآية الكريمة تشير الى الصلوات الخمس المفروضة كلها ، ومنهم من ذهب الى أنها تشير الى بعض الصلوات فقط •

والمتكأ الذى اعتمد عليه الأولون ، هو أن دلوك الشمس ، الذى هو بمعنى زوال الشمس ، يشمل كلا من صلاة الظهر وصلاة العصر • من بداية الزوال الى منتهاه • وأن غسق الليل ، الذى هو بمعنى سواد الليل وظلمته ، شامل لصلاة العشاء نهاية وصلاة المغرب بداية • وتبقى بعد ذلك صلاة الفجر التى عبر عنها بقرآن الفجر ، لأن تلاوة القرآن أعظم جوانبها • « قال ابن عطية : أقم الصلاة ، الآية • هذه بإجماع من المفسرين[1] إشارة الى الصلوات المفروضة • فقال ابن عمر وابن عباس وأبو بردة والحسن والجمهور : دلوك الشمس ، زوالها • والإشارة الى الظهر والعصر • وغسق الليل إشارة الى المغرب والعشاء • وقرآن الفجر أريد به صلاة الصبح • فالآية على هذا تعم جميع الصلوات »[2] •

---

(١) فى هذا التعميم شىء من التسامح فى التعبير .
(٢) البحر المحيط ، ٦ / ٧٠

أما الذين يذهبون الى أن الآية الكريمة لا تشير الى كل الصلوات انما الى بعضها ، فينبغى أن نقرر ابتداء بأن ثمة شبه اتفاق بين العلماء على أن المراد بقرآن الفجر صلاة الفجر .

وإن نقطة الخلاف تتركز حول تفسير لفظة « دلوك » من قوله تعالى : ﴿ أقم الصلاة لدلوك الشمس الى غسق الليل ﴾ فالذين يرون أن لفظة دلوك بمعنى غروب ، يكون معنى الكلام عندهم : « أقم يا محمد الصلاة لغروب الشمس الى ظلمة الليل وسواده . ومعروف أن غروب الشمس يعنى حلول وقت صلاة المغرب . وأن ظلمة الليل وسواده يعنيان حلول وقت صلاة العشاء . وعلى هذا الرأى تكون الآية الكريمة قد أشارت الى كل من صلاة المغرب والعشاء والفجر ، ولم تشر الى صلاتى الظهر والعصر . فالآية الكريمة إذن لم تشأ الإشارة الى كل الصلوات انما الى بعضها ، الى الصلوات التى تتم فى غيبة الشمس[1] . واذا كانت لفظة دلوك بمعنى الزوال كانت الآية تشير الى صلاة الظهر والعشاء والفجر[1] .

على أن لأبى حيان فى بحره المحيط رأيا يبنيه على الفهم المباشر لمعنى الألفاظ وعنده أن لفظة دلوك يمكن أن تدل على الزوال ويمكن أن تدل على الغروب ، يقول[2] : « والذى يدل عليه ظاهر اللفظ أنه أمر باقامة الصلاة ، اما من أول الزوال الى الغسق وبقرآن الفجر . واما من الغروب الى الغسق وبقرآن الفجر ، فيكون المأمور به الصلاة فى وقتين ولا تؤخذ أوقات الصلوات الخمس من هذا اللفظ بوجه » . فأبو حيان ، يفهم من قرآن الفجر المعنى القريب الظاهر ، وهو تلاوة القرآن فجرا دون اشتراط كونها فى الصلاة .

وهكذا يتبين أن الخلاف بين أبى حيان وبين الذين يذهبون الى أن الاية الكريمة تشير الى الأوقات الثلاثة فقط ، ليس كبيرا .

ونحن فى حقيقة الأمر أميل الى اعتبار الآية الكريمة تشير الى ثلاثة أوقات للصلوات المفروضة ، المغرب والعشاء والفجر .

---

(١) أنظر البحر المحيط ٦ / ٧٠

(٢) البحر المحيط ، ٦ / ٧٠

والذى يجعلنا ــ إضافة للمعنى المعجمى للألفاظ ــ نميل الى اعتبار لفظة دلوك بمعنى غروب وليس بمعنى زوال ، هو أن تأمل الآيتين الكريمتين من هذه الزاوية يفضى الى نتيجة لطيفة هى أن بين الآيتين الكريمتين فى حديثهما عن الصلوات ، فرضها ونفلها ، تجانسا فى الاتجاه، وهو تجانس يجمعه غياب الشمس وقلة المشاغل الدنيوية واستعداد النفس للاقبال الكلى عليه عز وجل ، والجهر بتلاوة القرآن الكريم . يلاحظ كل ذلك فى صلاة التهجد ، وفى صلوات الفجر والمغرب والعشاء . والله تعالى أعلم بالمراد . قال تعالى : ﴿ أقم الصلاة لدلوك الشمس الى غسق الليل وقرآن الفجر ان قرآن الفجر كان مشهودا . ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا ﴾ .

ونحن فى حقيقة الأمر بحاجة الى أن نقف بشأن الآية الكريمة عند قوله تعالى : ﴿ وقرآن الفجر ، إن قرآن الفجر كان مشهودا ﴾ . وأول ما يلاحظ أن الآية الكريمة تعبّر عن صلاة الفجر خاصة بالقول : « وقرآن الفجر » مع العلم بأن تلاوة القرآن من أركان الصلاة . هذا بالإضافة الى أن الصلوات التى أشارت اليها الآية الكريمة ــ وفق الرأى الذى رجحنا ــ يجمع بينها الجهر بالقراءة . فلماذا قيل بشأن صلاة الفجر : « وقرآن الفجر » ؟

الحقيقة أن تعبيرا كهذا يبين ما لتلاوة القرآن الكريم فجرا فى الصلاة ــ أو فى غير الصلاة ــ من قدرة على إعطاء أصح دليل على الأمة الإسلامية التى منّ الله تعالى عليها دون غيرها من الأمم بهذا القرآن العظيم وبهذه الطريقة المعينة للصلاة ، وبالأذان لها . إن من أصح الأدلة على المجتمع الاسلامى ومن أقوى المميزات له بين مجتمعات الانسانية ، هو أنه مجتمع تميزه صلاة الفجر والأذان له . لماذا ؟ لأنه الوقت الذى تكون فيه المجتمعات غير الاسلامية غاطة فى سباتها العميق ، أو مشغولة بدنياها . أما المجتمع الاسلامى ، فإن أذان الفجر والصلاة وتلاوة القرآن التى تشق أديم الظلام ، من أكبر المميزات له . حقاً ان المجتمع الاسلامى معروف باقامة كل الصلوات فى أوقاتها . ولكن الحقيقة التى لا غبار عليها هى أن صلاة الفجر ، للملابسات التى تحيط بها من استثقال المضاجع بغير المسلمين على حدّ تعبير الشاعر المؤمن عبد الله بن رواحة ، ورغبة منهم فى النوم للهدوء والسكينة ، أكثر قدرة بطبعها على إعطاء الانطباع الاسلامى الصحيح . وحينما يرتّل الإمام فى صلاة الفجر

القرآن ترتيلا ، فان ذلك الترتيل قادر على ملء آذان كل الآفاق والفجاج بأكثر من أى وقت آخر • خاصة وأن كل مدينة إسلامية ، بها بحمد الله تعالى الكثير من المساجد • فحق القرآن الكريم أن يرتل فى كل مسجد ومنزل وأن ينوه به وأن يطلق على صلاة الفجر • قال تعالى : ﴿ أقم الصلاة لدلوك الشمس الى غسق الليل وقرآن الفجر ﴾ •

ومن اللطيف ، دليلا على أن أذان الفجر والصلاة من أهم ما يميز المسلمين من غيرهم ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو الأسوة الحسنة ، كان اذا غزا قوما لم يغر عليهم حتى يصبح • فان سمع أذانا أمسك وان لم يسمع أذانا أغار[1] •

ومن اللطيف أيضا ، دليلا على ذلك ، أن هذه الحقيقة لفتت الانتباه اليها فى وقت جد مبكر من تاريخ الاسلام • ومن أوائل الأشخاص الذين تبينوا أن ترتيل القرآن الكريم فجرا من أهم ما يميز المجتمع الاسلامى من غيره ، شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم ، عبد الله بن رواحة الأنصارى الخزرجى الذى قدر له أن يعيش جزءا كبيرا من حياته فى الجاهلية وأن يسلم ويكون أحد النقباء ليلة العقبة • وقد أتاح له معاصرة كل من حياة الجاهلية وحياة الاسلام ، أن يلمح فارقا من أهم الفوارق التى تميز المسلمين عن غيرهم ، وهو ترتيل المصطفى صلى الله عليه وسلم للقرآن الكريم فى صلاة الفجر ترتيلا وتهجده وفى كل ذلك رسول الله أسوة حسنة • يقول ذلك الشاعر المؤمن[2] :

وفينا رسولُ الله يتلو كتابه اذا انشقّ معروفٌ من الفجر ساطعُ
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا به موقنات أن ما قال واقع
يبيت يُجافى جنبه عن فراشه اذا استثقلت بالمشركين المضاجع
وأعلم علما ليس بالظن أننى الى الله محشور هناك وراجع

وقد رُوِىَ عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ان أخا لكم لا يقول الرّفث ، يعنى ابن رواحة ، وذلك لقوله هذه الأبيات التى من أهمّ ما يلاحظ بشأنها أنها متأثرة تماما بالآيتين الكريمتين اللتين نحن بصددهما •

---

(١) السيرة ٢/٣٢٩ •
(٢) درسنا هذه الابيات ص ٤٣ من ديوان عبد الله بن رواحة بتحقيقنا وانظر صحيح البخارى ٦/٤٤ •

وبقى علينا بشأن الآية الأولى هذه الجزئية الأخيرة : ﴿ ان قرآن الفجر كان مشهودا ﴾ وأول ما يلاحظ أنها تستعمل لفظة القرآن ولفظة الفجر اللتين جاءتا من قبل فى الآية الكريمة بصريح اللفظ ، قال تعالى : ﴿ وقرآن الفجر ان قرآن الفجر كان مشهودا ﴾ لقد كان فى الإمكان أن تكون الجزئية فى هذه الصورة : أنه كان مشهودا . ولكن الآية الكريمة تريد من ناحية أن توحى بعظمة القرآن الكريم ومن ناحية أخرى بعظمة تلاوة القرآن الكريم فى ذلك الوقت للصلاة ، ولهذا لم تكتف بالضمير بل لجأت للاسم الظاهر . ولا شك أن هذا الايحاء بالعظمة ، يتمشى مع العظمة التى يوحى بها اختصاص صلاة الفجر بالتعبير عنها فى الآية بالقول : ﴿ وقرآن الفجر ﴾ ولا يخفى أن كل الصلوات الثلاث التى أشارت اليها هذه الآية الكريمة يجهر فيها كلها بتلاوة القرآن .

وما المراد بالقول : مشهودا ، فى الجزئية الكريمة ﴿ ان قرآن الفجر كان مشهودا ﴾ ؟

الحقيقة أن المراد بذلك أوضحه المصطفى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الذى رواه أبو هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار فى صلاة الصبح » . ويقول أبو هريرة اقرأوا ان شئتم : « وقرآن الفجر ان قرآن الفجر كان مشهودا[1] » وعلى هذا يكون معنى الجزئية فى الآية الكريمة أن صلاة الفجر التى يرتل فيها القرآن الكريم ترتيلا تشهدها الملائكة ، حفظة الليل وحفظة النهار[2] .

وفيما يتصل بالآية الكريمة الثانية التى تتحدث عن صلاة النفل ، نحن بحاجة الى الوقوف عند بعض الجوانب منها . قال تعالى : ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا ﴾ . وأول هذه الجوانب حرف الفاء من قوله تعالى : « فتهجد » لماذا جاء حرف العطف هذا مع امكان الاستغناء عنه فيقال : ومن الليل تهجد ؟ . ان فى الإمكان جوابا على هذا الاستفهام أن يقال إن لحرف الفاء هنا دورا

---

(١) صحيح البخارى ١٠٨/٦ .
(٢) انظر البحر المحيط ٧١/٦ .

صوتيا يكون الكلام بسببه أكثر اتساقا • ولكن هذه الحلية الصوتية ترتبط بها فائدة معنوية كبرى ، نستطيع أن نمهّد لها بالقول : إنّ هذه الآية الكريمة تتحدث عن صلاة النفل إثر الآية الكريمة السابقة التى تتحدث عن صلاة الفرض فاذا عرفنا أن المصطفى صلى الله عليه وسلم الذى يوجّه اليه الخطاب أساسا فى الآيتين الكريمتين مطالب بأكثر مما تطالب به أمته ، لأنه هو الأسوة الحسنة ، ولأنه خاصّة مُعانٌ على العبادة منه عز وجل ، استطعنا أن نفهم أن النوافل فى حقه صلى الله عليه وسلم واجبة وليس كذا أمته • وعليه فالفارق بين الفرض والنافلة بشأنه عليه الصلاة والسلام ليس كبيرا كالفارق بشأن أمته • فلطف لكل ذلك واشعارا بمنزلة النافلة بحقه صلى الله عليه وسلم والتى هى ليست بجد بعيدة عن الفرض أن يشار الى ذلك من طرف خفى ، فكانت الفاء العاطفة الداخلة على جملة : « فتهجد » والدالة على القرب الزمنى والمكانى معا أو التوالى الزمنى والمكانى • وهكذا نتبين الأدوار العظيمة لحرف الفاء والأهداف النبيلة من مجيئه ، فليست المسألة قائمة على الحلية الصوتية فحسب •

وثانى الجوانب معنى القول : ﴿ نافلة لك ﴾ فما معناه ؟ عبادة زائدة لك على الصلوات الخمس • وضع نافلة موضع تهجدا ، لأن التهجّد عبادة زائدة • فكأن التهجد والنافلة يجمعهما معنى واحد • والمعنى أن التهجد زيد لك على الصلوات المفروضة فريضة عليك خاصة دون غيرك لأنه تطوع لهم[1] •

وثالث هذه الجوانب معنى القول : ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا ﴾ إنّ الخطاب هنا خاص بالمصطفى صلى الله عليه وسلم • ومدلول عسى فى المحبوبات الترجى[2] وحيث إنّ الترجية والإطماع منه عز وجل لحبيبه المصطفى صلى الله عليه وسلم فالأجود أن يكونا بمعنى الوجوب منه عز وجل[3] فى المقام المحمود الذى سيقفه المصطفى صلى الله عليه وسلم ؛ إن جملة : « يبعثك » قادرة على توجيه الأنظار الى ذلك المقام • انه متعلق بيوم البعث يوم القيامة ذلك اليوم المجموع له الناس المشهود • وإنّ الأحاديث النبوية الشريفة لتنصّ على ذلك

---

(١) الكشاف ، ٢/٢٤٣ •
(٢) البحر المحيط ، ٦/٧٢ •
(٣) انظر البحر ٦/٧٢ •

بصريح العبارة[1] فعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من قال حين يسمع النداء اللهم رب هـذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذى وعدته حلت[2] له شفاعتى يوم القيامة[3] وعن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما أن الناس يصيرون يوم القيامة جُثًا كل أمة تتبع نبيها يقولون يا فلان اشفع حتى تنتهى الشفاعة الى النبى صلى الله عليه وسلم فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود[4] أى يحمده أهل الجمع كلهم[5] .

واذا كانت الصلاة ، فرضها ونفلها ، والتى تستغرق من اليوم أوقاتا تطول أو تقصر ، تعنى إقبال الانسان الكلى على الله تعالى ، وفى ذلك شفاء للصدور ، فان الأعمال اليومية التى يقوم بها الانسان فى حياته ، ينبغى أن يستمد فى أدائها كلها العون منه عز وجل والتأييد ، وأن يربد بأدائها كلها وجهه عز وجل ، وأن يدعوه ربه بأن تكون كلها بعيدة تماما عن أدنى ذم قريبة جدا من كل مدح وثناء ، إن الأعمال حينما يريد بها المرء وجه ربه الأعلى ، فانها شفاء آخر للصدور يضاف الى الشفاء السابق ، بسبب الحياة الطيبة التى يحياها المرء فى هذه الحياة الدنيا . والى كل ذلك أشارت الآية الكريمة التالية ، قال تعالى : ﴿ وقل رب أدخلنى مدخل صـدق وأخرجنى مخرج صدق واجعـل لى من لدنك سـلطانا نصـيرا ﴾ .

وانا لنتساءل : أفى الامكان أن نربط بين هذه الآية الكريمة وبين حادثة واحدة بعينها ، كالتى ذهب اليها البعض من أن المراد بالادخال إدخال خاص بالمدينة المنورة بسبب الهجرة ، والمراد بالإخراج إخراج خاص وهو من مكة المكرمة ؟ أم أن هذه الآية شاملة لكل أمور المصطفى صلى الله عليه وسلم وأمته من بعده ومن ثم هى شفاء دائم لمـا فى الصـدور .

---

(١) فى صحيح البخارى ١٠٥/٦ — ١٠٧ حديث الشـفاعة التى يتدافعها الانبياء حتى تنتهى الى المصطفى صلى الله عليه وسلم فتقبل شفاعته .
(٢) حلت : وجبت .
(٣) صحيح البخارى ، ١٠٨/٦ .
(٤) صحيح البخارى ، ١٠٨/٦ .
(٥) انظر البحر المحيط ، ٧٢/٦ .

الحقيقة أن حادثة الهجرة هى أقرب المعـانى التى ذهب المفسرون الى أن الآية الكريمة تفيدها • وبتأملنا للآية الكريمة من هذه الزاوية يتبين أن تركيب الكلام فيها لا يتمشى مع ترتيب أحداث الهجرة • فاذا كان الدخول هو الذى ابتدأت بالإشارة اليه الآية الكريمة ، فان الدخول يجىء فى حوادث الهجرة ثانيا ، لأنه دخول فى المدينة المنورة التى كانت الهجرة اليها • واذا كان الخروج هو الذى أشارت اليه الآية الكريمه ثانيا ، فان الخروج يجىء فى حوادث الهجرة أولا ، لأنه خروج من مكة التى كانت الهجرة منها • وبما أن التركيب العضـوى للآية الكريمة لا يتمشى مع الترتيب الطبيعى لمكانى الهجرة ، فمعنى هذا أن الأولى أن نذهب الى أن الآية الكريمة غير مرتبطة بحادثة واحدة بعينها ، وإنما هى شاملة لكل أمر من أموره صلى الله عليه وسلم وأمور أمته • ففيها توجيه له صلى الله عليه وسلم ولأمته بأن يطلب كل منه عز وجـل فى معالجة كل أمر من الأمور النجاح والتوفيق فى البداية والنهـاية • ولا يكون شىء من ذلك الا بالتأييد منه عز وجل • وتأمل لفظة الرب فى الدعاء القرآنى الذى يلقنه المصطفى صلى الله عليه وسلم والذى يحملنا على تذكر الجزئية الأخيرة فى الآية السابقة : ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا ﴾ وهى لفظة تستعمل فى العادة حينما يكون الجـو عابقا بشذا الرضى والحبور •

وفى ضوء كون هذه الآية الكريمة مكية قال تعالى : ﴿ وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا ﴾ ، بمعنى أنها نزلت قبل الهجرة ، فاننا نستطيع أن نفهم بأن المراد بالحق الإسلام وما ارتبط به ويرتبط دائما من خير وبركة • وأن المراد بالباطل فى الدرجة الأولى الشرك وما ارتبط به ويرتبط من شرور وآثام • فالآية الكريمة تأمر المصطفى صلى الله عليه وسلم بأن يعلنها صريحة مدوية بأن دولة الحق قد أعلنت ورايته قد علت ورفرفت ، وأن دولة الباطل قد اضمحلت وانزوت ورايته قد سقطت وتمزقت • ولا تقف الآية الكريمة عند مجرد تقرير هـذه الحقيقة القائمة ، إنما تردف ذلك بتقرير الحقيقة الأخرى القائمة من أن العاقبة للمتقين والنصر حليفهم فى النهاية ، ودولة الحق هى المرفرفة رايتهـا فى نهاية كل مطاف • فان كان للباطل جـولة فللحق جولات ، إذ لا يلبث الباطل كل مرة أن يزهق ، يضمحل ويذوب ويتلاشى • قال عز من قائل : ﴿ وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا ﴾ •

ونستطيع أن نفهم بداهة أن الحق بحاجة لأن يكون له أصحابه وأحبابه الذين يبينونه ويعملون من أجله ويتعبون فى سبيله ويكدحون ويستهينون بكل الصعاب ويبذلون كل رخيص وغال بما فى ذلك الأرواح. فكأن هذه الآية الكريمة تهدف الى ما تهدف الآيات السابقة من تثبيت فؤاد المصطفى صلى الله عليه وسلم وشفاء لما فى صدره عليه الصلاة والسلام من حزن وأسى .

وحينما نذهب إلى القول بأن المراد بالحق فى الآية الكريمة دين الإسلام الذى ارتضى رب العزة لعباده ، وكل ما ارتبط به ويرتبط دائما وأبداً من خير وبركة ، فانا نعنى بالحق فيما نعنى ، بل فى الدرجة الأولى القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف أو السنة المطهرة التى هى تبيين للقرآن الكريم وتوضيح . ومعروف أن للقرآن الكريم فى هذه السورة الكريمة شأنا أى شأن ، اذ أنه يشكل فيها موضوعا قائما برأسه . وها نحن أولاء ، نعود سريعاً إلى القرآن الكريم والى تأثيره العجيب فى نفوس المؤمنين بينما لا يزيد سماعه ــ أو قراءته ــ الظالمين الا خسارا . قال عز من قائل: ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الا خساراً ﴾ .

ونود ابتداءً تأمل الشق الأول من الآية الكريمة . وأول مفتاح لمعرفة ما اذا كان القرآن كله أو بعضه شفاء ورحمة ــ فقد حلا للبعض أن يسأل فى هذا الأمر ــ هو جملة تنزل ، التى يفهم منها أن القرآن الكريم نزل منجما أى مفرقا على المصطفى صلى الله عليه وسلم . ومعروف أن العلماء قد ذهبوا الى أن القرآن الكريم قد نزل من اللوح المحفوظ ليلة القدر من شهر رمضان الى السماء الدنيا كاملا ، ثم نزل بعد ذلك منجما فى عشرين سنة أو ثلاث وعشرين أو خمس وعشرين ، على حسب الخلاف فى مدة اقامته صلى الله عليه وسلم بمكة بعد البعثة[1] وهذا يعنى أن القرآن الكريم كان فى المرحلتين السابقتين كاملا وفى المرحلة الثالثة نزل مفرقا ، وبعد أن انتهى نزول آخر آية القرآن الكريم ، عاد الى صورته التى كان عليها فى المرحلتين السابقتين فالمعروف أن ترتيب سور القرآن الكريم وآياته توقيفى ، فقد كان جبريل عليه السلام يوقف المصطفى صلى الله عليه وسلم على موضع كل ما نزل منه فى السورة أو المصحف إن كانت السورة نزلت كاملة .

---

(١) الاتقان ١٠/٤١ .

ونود بعد هذا أن نتأمل كلاً من الشفاء والرحمة على التوالى . فما المراد بالشفاء ؟ أهو شفاء الأرواح أم الأبدان أم هما معا ؟ الحقيقة أن عطف لفظة رحمة ، وهى شىء معنوى روحى ، ربما كان قادرا ، بالدرجة الأولى ، على إثبات شفاء الأرواح بشأن لفظة شفاء فى حق القرآن المجيد . وعلى ذلك يكون ثمة تدرج فى المعانى ، الشفاء ثم الرحمة . أما الشفاء فانه قادر على ازالة كل سوء يعلق بالنفس الإنسانية من انقباض وحزن وقلق وعذاب وألم وما الى ذلك ، وليس أدل على ذلك من أنه صلى الله عليه وسلم اذا حَزَبَهُ أمر من الأمور فَرّ إلى الصلاة ، وأن قراءة القرآن الكريم أحد أركان الصلاة . أما الرحمة فانها شىء إضافى وزائد ، لا يكتفى بالوقوف عند درجة الشفاء بل يتخطاها . فاذا كان الشفاء يعنى بالدرجة الأولى ازالة ما عرض للنفس من سوء ، فان الرحمة تعنى خيرا وبركة جديدين .

واذا كان لفظ الشفاء يتجه بالدرجة الأولى الى شفاء النفوس وراحة البال وطهارة القلوب ، فليس معنى هذا أنه لا يمتد الى شفاء الأجسام ، كلا . فما أكثر النصوص المتواترة على شفاء القرآن الكريم للأجسام المريضة المبتلاة . ومن أقرب ما يحضرنا بهذه المناسبة ما جاء فى الحديث الشريف عن الذى رقى بالفاتحة من لسعة العقرب[1] .

فاذا أردنا الاجابة على السؤال : أيفهم من الآية الكريمة أن كل القرآن الكريم شفاء ورحمة للمؤمنين أم بعضه ؟ استطعنا أن نقول : ان كل القرآن الكريم شفاء ورحمة للمؤمنين . ولدينا دليلان على ذلك .

الدليل الأول هو أن القرآن الكريم الذى كان فى اللوح المحفوظ أولا وبيت العزة فى السماء الدنيا ثانيا[2] قد نزل كله على المصطفى صلى الله عليه وسلم حسب الوقائع ومقتضيات الأحوال . فصفتا الشفاء والرحمة ملازمتان للقرآن الكريم الذى عاد بنزول آخره كما كان فى اللوح المحفوظ وبيت العزة فى السماء الدنيا .

والدليل الثانى هو أن القرآن الكريم اذا كان شفاء ورحمة للمؤمنين بنص الآية الكريمة ، فانه بنص الآية الكريمة أيضا لا يزيد الظالمين

---

(١) البحر المحيط ، ٦/٧٤ .
(٢) انظر الاتقان ، ١/٤١ .

إلا خسارا . ومعروف أن الظالمين يرفضون القرآن الكريم جملة وتفصيلا ، والى هذه الحقيقة أشارت هذه السورة الكريمة فى أكثر من موضع[1] قبل سواها ، وحيث إن موقف الظالمين من القرآن الكريم كله واحد ، إذ لا يزيد هؤلاء الظالمين أنفسهم الا خسارا بسبب موقفهم السيىء منه ، فلزم بناءً على ذلك أن يكون كل القرآن الكريم بشأن المؤمنين فى المقابل شفاء ورحمة .

إن عناية سورة الاسراء بالانسان عناية كبيرة حقا . وقد اتخذت تلك العناية صورتين رئيسيتين . الصورة الأولى ، العناية بالناس كل الناس برهم وفاجرهم على اختلاف درجات البر حتى تصل الى قمتها التى تتمثل فى الأنبياء والمرسلين . وممن أشارت اليه السورة الكريمة محمد صلى الله عليه وسلم وموسى ونوح وداود عليهم السلام . وعلى اختلاف درجات الفجور التى تتمثل أسوأ درجاتها فى تلك الفئات التى أهلكها الله تعالى بقصد أن يتحول المخطئون الى الصراط المستقيم . قال عز من قائل : ﴿ وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح ، وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا ﴾ وقال : ﴿ واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا ﴾ .

والصورة الثانية للعناية تتمثل فى الحديث عن جنس الانسان فى هيئة نظرات ثاقبة وأحكام صائبة . وقد جاءت تلك النظرات والأحكام فى أربعة مواضع من السورة : الأول فى قوله تعالى : ﴿ ويدعو الانسان بالشر دعاءه بالخير وكان الانسان عجولا ﴾ والثانى فى قوله تعالى : ﴿ واذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون الا اياه فلما نجاكم الى البر أعرضتم وكان الانسان كفورا ﴾ وسبق أن أنعمنا النظر فى هاتين الآيتين الكريمتين . والثالث فى قوله تعالى : ﴿ قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى اذن لأمسكتم خشية الانفاق وكان الانسان قتورا ﴾ . وسنتأمل هذه الآية الكريمة ان شاء الله تعالى مستقبلا . والرابع فى قوله تعالى : ﴿ واذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه واذا مسه الشر كان يئوسا ﴾ . وهذه الآية الكريمة موضع دراستنا الآن . وقد جاءت اثر الحديث عن فعل القرآن الكريم فى المؤمنين من كونه شفاء ورحمة ، وفعله فى الظالمين أنفسهم اذ لا يزيدهم الا خسارا .

---

(١) الآيات ، ٤١ ، ٤٥ — ٤٨ ، ٨٩ .

وحيث ان الإشارة لخسران الظالمين جاءت فى الآية الكريمة متأخرة ، لذا كان الانتقال الى الحديث عن أناس يغلب عليهم الخسران المبين غير بعيد ولطيفا • وهذه الآية ترتبط بلاحقتها ارتباطا وثيقا • قال تعالى : ﴿ واذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه واذا مسه الشر كان يئوسا • قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا ﴾ • فما هى الصفة التى تغلب على جنس الانسان بنص الآية الكريمة ؟ أنه ــ الا من رحم ربك ــ فى السّراء كنود جحود منوع جاحد للمعروف • وفى الضّراء جزوع يئوس قنوط • قال عز من قائل[1] : ﴿ قتل الانسان ما أكفره ﴾ ! وقال[2] : ﴿ ان الانسان خلق هلوعا • اذا مسه الشر جزوعا • واذا مسه الخير منوعا ﴾ • ومن الذين يستثنون من هذه الصفات السيئة ؟ اليك الجواب مباشرة »[3] : ﴿ الا المصلين • الذين هم على صلاتهم دائمون • والذين فى أموالهم حق معلوم • للسائل والمحروم • والذين يصدقون بيوم الدين • والذين هم من عذاب ربهم مشفقون • ان عذاب ربهم غير مأمون • والذين هم لفروجهم حافظون • الا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين • فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون • والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون • والذين هم بشهاداتهم قائمون • والذين هم على صلاتهم يحافظون • أولئك فى جنات مكرمون ﴾ • ويلاحظ أن الآيات الكريمة ابتدأت باستثناء المصلين وانتهت باستثنائهم أيضا • وبين البداية والنهاية العديد من النعوت التى تعتبر تبعا ملازما لاقامة الصلاة التى هى عماد الدين • وكيف وصلت الانسان تلك النعوت التى تبدأ باقامة الصلاة ؟ عن طريق الدين الذى ارتضى رب العزة للناس أجمعين والذى بعث به محمدا صلى الله عليه وسلم آخر الأنبياء والمرسلين وأنزل عليه فى أسمى طرق الوحى القرآن الكريم بلسان عربى مبين • فما معنى ذلك ؟ معناه أن جنس الانسان مستعد لأن يصدر منه كل من الخير والشر ، والذى يهدى الى الخير تعاليم السماء •

ان الآيتين الكريمتين تدوران حول فكرة المسئولية • والذين يقعون داخل دائرة اهتمامنا هم الذين وصلتهم تعاليم السماء فأصبحوا

---

(١) عبس ، ١٧ •
(٢) المعارج ، ١٩ ــ ٢١ •
(٣) المعارج ، ٢٢ ــ ٣٥ •

مسئولين ومكلفين • وحينما ننعم النظر فى الآيتين الكريمتين من هـذه الزاوية ، فاننا نتبين أنهما تقسمان البشر قسمين لا ثالث لهما • القسم الأول هم الضالون على اختلاف درجات الضلال ، وهذا القسم يشمله الآية الأولى وصدر الثانية • قال تعالى : ﴿ واذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه واذا مسه الشر كان يئوسا • قل كل يعمل على شاكلته ﴾ والقسم الثانى هم المهتدون ، على اختلاف درجات الهداية • وهذا القسم يشمله بالدرجة الأولى عجز الآية الثانية ، مع أن له من صدرها شيئا من نصيب • قال تعالى : ﴿ قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا ﴾ •

ونستطيع بشأن الآية الأولى أن نقول إننا بصدد مظهر آخر من مظاهر تحول الانسان وتقلبه فى حالتى اليسر والعسر معا. أما المظهر الأول ففى الآيات التى تتحدث عن نعمة حمل الله تعالى الناس فوق المـاء • وحيث إن درجات ابتعاد جنس الإنسان عن الخط السوى متفاوتة ، فإن الآية الكريمة فى تعبيرها عن موقف الإنسان فى السراء لتوحى بذلك التفاوت • قال عز من قائل : ﴿ واذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه ﴾ فنحن بصدد مرحلتين متعاقبتين للخروج عن الخط السوى • ومن الجائز أن تجتمع المرحلتان فى الشخص الواحد ، ومن الجائز أيضا أن تتفاوت الدرجات الداخلية لكل من المرحلتين • وتأمل التعبير البليغ الذى استعملته الآية الكريمة بشأن كل من المرحلتين. إنها تستعير دليلا على المرحلة الأولى الإعراض ، وهو يستعمل أساسا للوجه • كما أنها تستعير دليلا على المرحلة التالية النأى بالجانب ، الذى يستعمل أساسا دليلا على مرحلة من الإعراض بعيدة ورغبة فيه أكيدة • فكأن الآية الكريمة تنقل كلا من التعبيرين من المرحلة التى كان يستعمل فيها استعمالا حسيا الى المرحلة التالية التى يستعمل فيها استعمالا معنويا • أما المرحلة الحسية بشأن الإعراض فتبدو من تمثل ذلك الشخص الذى يشيح بوجهه دليل الإعراض والميل المحدودين • وأما المرحلة الحسية بشأن النأى فتبدو من تمثل ذلك الشخص الذى لا يكتفى بإعراض وجهه ، إنما ينأى بكل جانبه أى بشقه كاملا ، راغبا فى تلقى خصومه بظهره دليل البغض لهم والإصرار على النأى عنهم وعدم القدرة على تحمل النظر إليهم •

وتأمل اختيار الآية الكريمة لجملة نأى فى قوله تعـالى : ﴿ ونأى بجانبه ﴾ إن هذه الجملة أبلغ جملة فى الدلالة على البعد الشـديد ، وحيث إن جسم الذى يقوم بهذه الحركة ليس دائما نائيا بالضرورة ، فإن جملة نأى البليغة قادرة على الغوص فى أعماق الشخص القائم بهذه الحركة ، وكأنها تقول لنا إنه يتمنى فى أعماقه لو كان نائيا بجسمه عن خصومه غير موجود فى المكان الذى هم فيه . هذه الصور الحسية أساسـا تستفيد منها الآية الكريمة فى تعبيرها المعنـوى عن درجتى الخروج عن جادة الصواب ، وعن الدرجات الداخلية لكل من الدرجتين .

( ١٥ )

# يسألونك عن الروح

كل القرآن الكريم معجز . هذه حقيقة لا تزيدها الدهور إلا رسوخا . وهو معجز بنظمه أو مبناه كما أنه معجز بمضمونه أو معناه . وإذا نظرنا للقرآن الكريم من ناحية المضمون أو المعنى ، تبيّنا أن إعجازه لا يقتصر على ما قدم من فوائد ، بل يتخطاه الى أنّ ما وقف عنده وسكت عنه قصدا ، ليس فى مقدور البشر الا أن يقفوا عنده ويسكتوا اضطرارا لا اختيارا . وتفسير ذلك هو أننا لو أنعمنا النظر فى قوله تعالى من سورة لقمان[1] : ﴿ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام . وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت ان الله عليم خبير ﴾ فانا نتبين أن الآية الكريمة تنصّ على أنه عز وجل قد استأثر بهذه المظاهر الخمسة للعلم : يوم القيامة ووقت نزول المطر ونوع الجنين فى رحم والدته وما سيكسبه الإنسان فى غده من رزق ومكان وفاته ويرتبط بذلك الزّمان .

وحينما ننظر إلى هذه المظاهر الخمسة للعلم التى نصّت عليها الآية الكريمة وبحثنا بينها عن مظاهر العلم التى يئس الناس من حصولهم عليها قبل وقت حدوثها فاستراحوا وأراحوا ، لتبين أنها ثلاثة هى : علم الساعة ، وما يكسبه الإنسان فى غده ، والأرض التى سيموت فيها الإنسان . وهنا ينطبق القول المشهور : فى اليأس راحة . ويبقى بعد ذلك مظهران للعلم هما نزول الغيث ونوع الجنين فى رحم والدته . وقد حاول العلماء ، ولا زالوا يحاولون جاهدين الوصول إلى نتيجة ايجابية ، فما هى النتيجة ؟ فيما يتصل بتنزيل الغيث فالثابت أنه رغم كل محطات الأرصاد الجوية ، فان التوقعات ستظل دائما وأبدا احتمالية وليس هناك شىء أكيد مطلقا . وما سأذكره من تعليق ساخر وقفت عليه فى احدى صحف بعض البلدان ، أريد به الجدّ وليس الهزل .

---

(١) آية ، ٣٤ .

فللتعليق من الجد أوفى نصيب وان بدا ثوبه الخارجى فى غير ذلك للوهلة الأولى • تبرّم الناس فى ذلك البلد من عدم موافقة أخبار الأحوال الجوية للواقع ، فما كان من المعلق الساخر الا أن رسم سلة بها العديد من وريقات الحظ المطوية ، والمفروض فى كل وريقة أن تتضمن معلومات معينة عن الأحوال الجوية • وليس على الموظف المختص سوى أن يغمض عينيه ويمدّ يده ويلتقط إحدى الوريقات ويعلن على الناس بموجبها أحوال الجو فى اليوم التالى مثلاً • هذا التعليق المرير وان كان ظاهره الهزل فان له من الجد والواقع أوفى نصيب •

وفيما يتصل بنوع الجنين الذى فى الرحم ، فمهما نجح العلماء فى اكتشاف الأشعة ، فانهم سيظلون عاجزين عن الكشف يقينا عن شكل الجنين ولونه ونوعه وهو داخل رحم أمه[1] ولا ننسى أن ثمة مراحل يمر بها الجنين منذ أن كان نطفة ، وكلما كانت الفترة قصيرة كانت الصعوبة أشد تمكنا •

وها نحن أولاء ، أمام آية كريمة فى سورة الإسراء ، تنصّ بشأن حقيقة معينة على أن العلم بتلك الحقيقة خاصّ بالله تعالى الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد • أما هذه الحقيقة فانها الروح • قال تعالى : ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم الا قليلا ﴾ • فالآية الكريمة تنصّ على أن العلم بحقيقة الروح وماهيتها مما استأثر به الله عز وجل • فهل استطاعت البشرية وهل تستطيع مستقبلا أن تتحرك بعلمها المتعلق بالروح قيد أنملة ، من المكان الذى أوقفتها فيه الآية الكريمة ؟ لا • إنّ البشرية عجزت حتى هذه اللحظة وستعجز قياسا ، عن أن تخطو بعلمها قيد أنملة ، وقد قيل : (٢)

فوجهُ اليوم للأمس انعكاسٌ وقد دلّا على الغد فاستنارا

واذا طلبنا بشأن العلم بالروح كلمة أكثر الظن قربا منها ، ولتكن الفلسفة فى هذا الموضوع كانت ولا تزال : لا أدرى[2] •

---

(١) انظر هنا مدخل الى القرآن الكريم . عرض تاريخى وتحليل مقارن . د. محمد عبد الله دراز . ص ١٨٠ ترجمة محمد عبد العظيم على الطبعة الأولى ، الكويت ١٣٩١ هـ ١٩٧١ م دار القرآن الكريم .

(٢) مدخل الى القرآن الكريم ص ١٨٠ .

ونودّ أن ننظر الى الآية الكريمة من زاوية وقوف الكفر صفا واحدا ضد الاسلام ، وقد قيل : الكفر ملة واحدة ، بمعنى أن أجزاءه تتلاصق وعناصره تذوب فى هيئة جبهة واحدة متلاحمة ما دام الخصم الذى تسدد اليه سهامهم هو الإسلام • وهذه الحقيقة تقتضى منا أن نتحول الى معرفة أسباب نزول هذه الآية الكريمة • واللطيف فى الأمر أن من العلماء من ذهب الى أن الآية الكريمة مكية ، ومنهم من ذهب الى أنهـا مدنية • وازاء صحة سند الروايتين ، وإنْ كانت الرواية الثانية هى الراجحة فى اعتقادنا فقد وفق بعض العلماء بين الروايتين فذهب الى تعدد النزول • بمعنى أنها نزلت أول الأمر فى مكة قبل الهجرة ، ثم نزلت مرة ثانية فى المدينة المنورة • واللطيف فى الأمر أيضـا أن كلتا الروايتين تخدمان الحقيقة التى نحن بصدد توضيحها والاستدلال عليها وهى أن الكفر ملة واحـدة •

فمع الرواية الأولى • جاء فى لباب النقول فى أسباب النزول لجلال الدين السيوطى فى سبب نزول هذه الآية الكريمة ، قوله[1] : « أخرج ابن جرير من طريق ابن اسحاق عن شيخ من أهل مصر عن عكرمة عن ابن عباس قال : بعثت قريش النضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط الى أحبار اليهود بالمدينة فقالوا لهم سلوهم عن محمد وصـفوا لهم صفته وأخبروهم بقوله فإنهم أهل الكتاب الأول وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء فخرجا حتى أتيا المدينة فسألوا أحبار اليهـود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ووصفوا لهم أمره وبعض قوله فقالوا لهم سلوه عن ثلاث • فإن أخبركم بها فهو نبىٌ مرسل وان لم يفعل فالرجل متقوّل • سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ما كان أمرهم ، فانه كان لهم أمر عجيب • وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه • وسلوه عن الروح ما هو • فأقبلا حتى قدما على قريش فقالا قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد • فجاءوا رسـول الله صلى الله عليه وسلم فسألوه فقال : أخبركم غدا بما سألتم عنه ولم يستثن[2] فانصرفوا ومكث رسول الله صلى الله عليه وسلم خمس عشرة ليلة لا يُحدِث الله فى ذلك إليه وحيا ولا يأتيه جبريل حتى أرجف أهل مكة وحتى أحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم مكث الوحى عنه

---

(١) هامش الجلالين ، ٢٢٨/١ .
(٢) اى لم يقل ان شاء الله .

وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة . ثم جاءه جبريل من الله بسورة أصحاب الكهف ، فيها معاتبته اياه على حزنه عليهم وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية والرجل الطواف وقول الله : ﴿ يسألونك عن الروح ﴾ . فالذى يفهم من هذه الرواية أن الآية الكريمة مكية . واعتمادا عليها يتبين التعاون التام بين المشركين واليهود فنحن إذن بصدد دليل قوى على القول : الكفر ملة واحدة .

فاذا تحولنا الى الرواية الثانية التى تذهب الى أن الآية الكريمة مدنية نزلت بسبب سؤال اليهود المصطفى صلى الله عليه وسلم عن الروح ، فانا نستطيع أن نتبين ببساطة أن اليهود يقومون بذات العمل الذى يقوم به المشركون ، ويقفون ذات الموقف من الدعوة الاسلامية . وقد أكدت الأحداث بعد كل ذلك . وهذه هى الرواية الثانية التى تتعلق بالروح فقط[1] : « أخرج البخارى عن ابن مسعود قال : كنت أمشى مع النبى صلى الله عليه وسلم بالمدينة وهو متوكىء على عسيب ، فمر بنفر من يهود فقال بعضهم : لو سألتموه فقالوا : حدثنا عن الروح ، فقام ساعة ورفع رأسه فعرفت أنه يوحى اليه ، حتى صَعدَ الوحى ثم قال : الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم الا قليلاً » . « قال ابن كثير : يجمع بين الحديثين بتعدد النزول . وكذا قال الحافظ ابن حجر ، أو يحمل سكوته حين سؤال اليهود على توقع مزيد بيان فى ذلك ، والا فما فى الصحيح أصح . قلت ( هو السيوطى ) ويرجح ما فى الصحيح بأن راويه حاضر القصة بخلاف ابن عباس »[2] .

وهكذا يتبين أنه إذا كان من الثابت أن اليهود أعانوا كفار مكة على سؤال المصطفى صلى الله عليه وسلم عن أصحاب الكهف وذى القرنين على الأقل ، وإذا كان الراجح عند البعض أن اليهود هم السائلون عن الروح ، فالنتيجة التى ننتهى اليها من التعاون بين المشركين واليهود ، وسلوك اليهود ذات السبيل التى سلك المشركون بقصد إرهاق الرسول صلى الله عليه وسلم ، هى أن الكفر ملة واحدة وصف واحد ضد هذا الدين حتى ولو بدا الكفر فيما سوى هذه المسألة ألف صف وصف وألف رأي ورأي . فعلى المسلمين أن يأخذوا حذرهم .

---

(١) لباب النقول ، ٢٢٣/١ .
(٢) لباب النقول ، ٢٢٣/١ .

والحقيقة أن كلا من المشركين واليهود لم يكونوا يريدون بأسئلتهم أى نفع إيجابى بدليل أن كلا من الفريقين استمر فى إعراضه عن الاسلام .

فإذا انتقلنا إلى الجزئية التعقيبية : ﴿وما أوتيتم من العلم الا قليلا﴾. فالذى يلفت انتباهنا لأول وهلة الالتفات من الغائب الذى فهمناه من قوله تعالى : « ويسألونك » الى المخاطب فى قوله تعالى : « وما أوتيتم » ومن حقنا أن نذهب الى أن هذا التعقيب شامل لكل الناس ، الذين كانوا سببا فى الكلام عن الروح وسواهم ، فهو قادر على حملنا على تمثل جميع الخلائق حاضرة وقد وجه اليها القول : ﴿وما أوتيتم من العلم الا قليلا﴾ . وسوف يفهم حسنو الطوية شيئا ويفهم سيئو الطوية إضافة الى هذا الشىء شيئا آخر .

أما الحسنو الطوية فانهم يأخذون الخطاب على ظاهره ، ويفهمون المعنى القريب للكلام ، وهو أن نسبة ما حصلوا عليه من العلم قليلة جدا بالقياس الى العلم الذى فى إمكان الناس أن يحصلوا عليه . وخير دليل على ذلك هو أن حدود العلم فى اتساع دائما ، وهى حدود خاضع تحركها لنشاط الإنسانية أو خمولها . وما أقل هذه النسبة بالقياس الى علم الذى أحاط بكل شىء علما عز وجل ، اذ لا يستطيع المؤمن الا أن يستذكر العديد من الإشارات القرآنية لعلم البشر المحدود ، بالقياس الى علمه عز وجل. ومنها قوله تعالى فى سورة الكهف[1] : ﴿قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا﴾ وقوله تعالى فى سورة لقمان[2] : ﴿ولو أنما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ان الله عزيز حكيم﴾ .

أما سيئو الطوية ، وبخاصة اليهود ومشركو مكة ، الذين لكل دور فى طرح أسئلة جدلية . فبالإضافة الى ما فهمه حسنو الطوية هم يفهمون أشياء أخرى تتمشى مع سوء طويتهم وهم الذين يسألون بقصد الجدل والعناد والاستكبار فى الأرض بغير الحق . فبما أنهم يطرحون

---

(١) آية ، ١٠٩ .
(٢) آية ٢٧ .

أسئلة ليس بقصد أن ينتفعوا من الأجوبة عليها خاصّةً وأن من الأسئلة ما يعرفون جوابه سابقا عن طريق الوحى ، أعنى السؤال عن الروح فاليهود على أقل تقدير يعرفون موقف التوراة منها — فانهم يفهمون من التعقيب شيئا كبيرا من التبكيت لهم والتقريع • وكأنّ الآية الكريمة تسألهم : هلا سألتم عن الأشياء التى لا تعرفون فعلا بقصد أن تضيفوا إلى حصيلتكم العلمية خيرا جديدا ، بدلا من أن تسألوا أو توحوا بأسئلة توجد الأجوبة الشافية عنها فيما بين أيديكم من التوراة • أم أنكم تطرحون هذه الأسئلة التى تعرفون الأجوبة عنها اعتقادا منكم بأن كل ما يمكن للبشر الحصول عليه من العلم قد حصلتم عليه ؟ ومهما كان جواب الذين يسألون ، فإنهم هم دائما وأبدا الحمقى المغرورون • إنهم يسألون ليس بقصد أن يستفيدوا ، ويسألون عما يعلمون أنه مما استأثر الله تعالى بعلمه • ويسألون أسئلة بعيدة كل البعد عما هم فى أمسّ الحاجة اليه لتدبير شئونهم الدينية والدنيوية •

وحينما ترد الآية الكريمة على السائلين عن الروح بأنها من الأمور التى استأثر الله تعالى بالعلم بها ، هى توجه الإنسانية : وبخاصة فى الجزئية التعقيبية ، الى ضرورة السعى الحثيث والعمل الجادّ بقصد الحصول على أكبر كمية من العلم التى هيأ الله تعالى الانسانية للحصول عليها • أما ما استأثر الله تعالى به ، فعليهم أن ييأسوا ولا يحاولوا ، لأنّ المحاولات فى هذا المجال جهد يذهب هدرا ، ووقت يمضى سدى • ومن ذلك الروح • وحيث إنّ الإنسانية قد وقفت طوعا أو كرها حيث أمرت آية الروح ، فنحن إذن بصدد واحد من الأدلة على إعجاز القرآن الكريم فيما يدلى به من معلومات وما يمسك •

( ١٦ )

# رحمة الله تعالى تسبق غضبه والتحدى بالقرآن

لما كان المشركون واليهود المنصرفون عن القرآن الكريم كله ليسوا الوحيدين فى الميدان بطبيعة الحال ، فقد كانت هناك الفئة المؤمنة المتمسكة بالقرآن المنفذة لتعاليمه ، وهذه الفئة لها حظها الموفور من قوله تعالى فى آية الروح : ﴿ الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم الا قليلا ﴾ فقد كان ذلك يعنى أن هناك موقفين متقابلين من القرآن الكريم .

واذا كان نزول القرآن الكريم واستمرار نزوله بشأن كل من المشركين واليهود يعنى فى نظرهم شرّاً مستطيرا ، فان ذلك بشأن المؤمنين بقيادة المصطفى صلى الله عليه وسلم يعنى فى يقين كل واعتقاده الخير كل الخير ألم تكن صفة الغفلة عما تضمنه القرآن الكريم ، من سمات الجميع ولم تنجل الا بنزول القرآن الكريم ؟ بلى . والى هذه الحقيقة أشار قوله تعالى فى سورة يوسف[1] : ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك هذا القرآن وان كنت من قبله لمن الغافلين ﴾ . وهل كان المصطفى صلى الله عليه وسلم قبل البعثة يرجو لحظة من اللحظات أن يلقى اليه الكتاب ؟ لا . والى هذه الحقيقة أشار قوله تعالى فى سورة القصص[2] : ﴿ وما كنت ترجو أن يلقى اليك الكتاب الا رحمة من ربك فلا تكونن ظهيرا للكافرين ﴾ . وهل كان المصطفى صلى الله عليه وسلم قبل نزول القرآن الكريم يدرى ما الكتاب أو الايمان ؟ لا . وإلى هذه الحقيقة أشار قوله تعالى فى سورة الشورى[3] : ﴿ وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا ، وانك لتهدى الى صراط مستقيم . صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا الى الله تصير

---

(١) آية ، ٣ .
(٢) آية ، ٨٦ .
(٣) آية ، ٥٢ ، ٥٣ .

الأمور ﴾ . وأخيرا ، أليس القرآن يهدى للطريقة التى هى أقوم وكل إنسان بعد ذلك مسئول عن كل ما يصدر منه شخصيا من خير أو شر ؟ بلى. قال تعالى فى سورة الإسراء : ﴿ ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا . وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذابا أليما ﴾ .

فما الذى يستحق أولئك المنصرفون عن القرآن الكريم بكل ما فيه من صروف القول وضروب الحكم الى أسئلة جدلية مصممين على ألا يستفيدوا من الأجوبة عنها ؟ يستحق أولئك أن يضرب عنهم الذكر صفحا وأن يهملوا إهمالا كليا ، ويتمثل ذلك التهديد فى توقف نزول الوحى بل الذهاب بما نزل من القرآن الكريم . والى ذلك أشار فى الآية التالية الآية الروح قوله تعالى : ﴿ ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا اليك ثم لا تجد لك به علينا وكيلا ﴾ .

ولكن ما الذى تستحق فى المقابل تلك الفئة المؤمنة بقيادة المصطفى صلى الله عليه وسلم ، تلك الفئة التى نزل بحقها مثلا قوله تعالى فى سورة المزمل[1] : ﴿ ان ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك ﴾ . فهى بذلك تنفذ أمر مولاها فى قوله تعالى من سورة الإسراء مثلا : ﴿ أقم الصلاة لدلوك الشمس الى غسق الليل وقرآن الفجر ان قرآن الفجر كان مشهودا . ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا ﴾ ؟ تستحق هذه الفئة فى المقابل أن يتمم الله تعالى فضله بإحسانه ، ويتمثل ذلك فى بقاء القرآن الكريم فى الصدور والصحف ونزول ما بقى منه على المصطفى صلى الله عليه وسلم . وحيث ان رحمة الله تعالى سبقت غضبه ومغفرته سبقت عذابه فقد شاءت إرادته عز وجل رحمة منه بعباده ، ومنا على نبيه وحبيبه صلى الله عليه وسلم وعلى الفئة المؤمنة أن يبقى القرآن الكريم فى الصدور والصحف ، وأن يستمر نزوله كى يكمل الدين وتتم النعمة ، وأن يتكفل رب العزة بحفظه . والى هذه الحقائق أشارت الآية التالية : ﴿ الا رحمة من ربك ، ان فضله كان عليك كبيرا ﴾ .

والحقيقة أن هاتين الآيتين الكريمتين المتلازمتين تبينان بجلاء إضافة

---

(١) آية ٢٠ .

إلى العديد من الآيات القرآنية ، دورَ المصطفى صلى الله عليه وسلم بشأن القرآن المجيد . إنه دور يقتصر على تلقّى الوحي عن الروح الأمين جبريل عليه السلام ، والى ذلك أشار قوله تعالى في سورة الشعراء[1] ﴿ وانه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربى مبين ﴾ . وقوله تعالى فى سورة التكوير[2] : ﴿ انه لقول رسول كريم . ذى قوة عند ذى العرش مكين . مطاع ثم أمين . وما صاحبكم بمجنون . ولقد رآه بالأفق المبين . وما هو على الغيب بضنين . وما هو بقول شيطان رجيم . فأين تذهبون . ان هو الا ذكر للعالمين . لمن شاء منكم أن يستقيم . وما تشاءون الا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ . وكان الوحى ينزل على المصطفى صلى الله عليه وسلم دون سابق استئذان ولا استعداد . وسَعِدَ الكثير من أتباعه عليه الصلاة والسلام بملاحظته أثناء تلقّى الوحي ، وهو تلقٍّ نسيجُ وحدِه . وحرصا منه صلى الله عليه وسلم أول مراحل عهده بالوحى على استيعاب كل ما ينزل به جبريل عليه السلام ، كان يتابع بالقراءة جبريل عليه السلام أثناء الإيحاء . وكفّ المصطفى صلى الله عليه وسلم عن ذلك بعد أن تكفل ربّ العزّة له بأن يثبت القرآن الكريم ومعناه فى صدره . والى هذه المعانى أشارت الآيات من سورة القيامة[1] ، قال تعالى : ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به ، ان علينا جمعه وقرآنه . فاذا قرأناه فاتبع قرآنه . ثم ان علينا بيانه ﴾ . ولا ننسى أن من الدروس القرآنية ما يتضمن اللوم الشديد لأقل مخالفة منه صلى الله عليه وسلم للمثل الأعلى المنشود[4] .

بل إنّ أولى الآيتين الكريمتين تنص على أن دور المصطفى صلى الله عليه وسلم يقصر عن أن يستطيع الاحتفاظ بما سبق أن نزل عليه من القرآن ، فيما لو شاءت العناية الالهية الذهاب بما نزل منه .

وهكذا يتبيّن أن دور المصطفى صلى الله عليه وسلم بشأن القرآن الكريم يقتصر على التلقى ، والتلقى فقط . خلافا لما قال المخالفون ويقولون . وما دام القرآن الكريم كلام رب العالمين ، فمعنى هذا

---

(١) آيات ، ١٩٢ — ١٩٥ .
(٢) آيات ، ١٩ — ٢٩ .
(٣) آيات ، ١٦ — ١٩ .
(٤) انظر هنا مدخل الى القرآن الكريم ص ١٧٠ .

أن الخلائق لا تستطيع أن تأتى بمثله أو بشىء من مثله . وهذا ما نصت عليه الآية التالية المتحدية بالقرآن الكريم . قال تعالى : ﴿ قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾ .

جمعت الآية الكريمة فى التحدى بين الإنس والجن ، لأن المصطفى صلى الله عليه وسلم قد بُعث لكلٍّ من الإنس والجن . ولأن هذين الجنسين فقط ، هما اللذان يصح أن يوجه اليهما التحدى ، لأن عند كلٍّ القدرة على النطق والتعبير . أما الإنس ، فقد جعل الله تعالى من الآيات الدالة على قدرته عز وجل اختلاف ألسنة البشر . وكل جماعة حريصة على أن يكون لها من صرح البلاغة والبيان أوفى نصيب . فاذا كان التحدى بالقرآن الكريم موجها الى البشر فى مجالٍ من أهمّ المجالات التى يتقنون ، فذلك يعنى أن التحدى فى موضعه . وأما الجن ، فالثابت من القرآن الكريم أنهم يتمتعون بقوى خفية ، على غرار ما تحدث به القرآن الكريم عنهم فى أكثر من موضع . ومن ذلك أثناء الحديث مثلا عن داود وسليمان عليهما السلام فى كل من سورة سبأ والنمل . فاذا كان التحدى بالقرآن الكريم موجّها بعد البشر الى الجن ، فذلك يعنى أن التحدى أيضا فى موضعه ، إذ الثابت إضافة الى ما سبق أنهم كالبشر يجيدون النطق والتعبير .

ويبقى بعد ذلك سؤال هو لماذا تقدمت الإشارة الى الانس فى قوله تعالى : ﴿ قل لئن اجتمعت الانس والجن ﴾ بينما حدث العكس فى مواضع أخرى من القرآن الكريم كما فى قوله تعالى فى سورة الذاريات(1) : ﴿ وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ﴾ والجواب على ذلك هو أنه حينما تتقدم الإشارة الى الإنس فان ثمة سببا وجيها للتقديم . وحينما تتقدم الإشارة الى الجن فان ثمة سببا وجيها آخر للتقديم . وفى الإمكان أن نتخذ آيتى الاسراء والذاريات مثلين لتقديم كل من الانس والجن على التوالى .

لقد تقدمت الإشارة فى الإسراء إلى الإنس لأنهم هم الذين بعث اليهم المصطفى صلى الله عليه وسلم أساسا ، وهم الذين لهم الأدوار

(1) آية ، ٥٦ .

الإيجابية من الدعوة الاسلامية قبولا أو رفضا ، وهم الهدف الأول من تصريف القول فى القرآن الكريم • فاذا كان ثمة تحد بالقرآن الكريم ، فالأولى بكل تحدٍّ جاد ، أن يتوجه الى أكثر العناصر إحساسا بالقدرة على الأخذ والعطاء وإيناسا بالقدرة على قبول التحدى • يلى ذلك الذين يلونهم درجة • وهذا ما حدث فعلا فى قوله تعالى فى الاسراء : ﴿قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم ظهيرا﴾ •

فاذا تحولنا الى آية الذاريات تبين أن ثمة مسألة أخرى تقوم الآية الكريمة بمراعاتها فتقدم فى الترتيب بناءً على ذلك الجن على الانس • أما هذه المسألة فهى الأسبقية فى الوجود أو الخلق • وحيث إن الجن قد خلقهم الله تعالى قبل الانس ، والى ذلك أشار مثلا قوله تعالى فى سورة الحجر[1] : ﴿ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حمأ مسنون ، والجان خلقناه من قبل من نار السموم﴾ فان آية الذاريات قدمت فى الذكر الجن على الانس • قال تعالى : « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » •

لقد نصت الآية الكريمة على مجموعة من العجائب ، حتى لو قدر لها أن تتحقق — وهذا فى حد ذاته مستحيل — فإنها ستنتهى حتما الى العجز التام عن الإتيان بمثل هذا القرآن • (ما هذه) العجائب فثلاث :

( أ ) أن تصح عزائم كل الإنس على أن يأتوا بمثل هذا القرآن •

(ب ) أن تصح عزائم كل الجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن •

(ج ) أن يتعاون كل الإنس وكل الجن ، لا يشذ من الجنسين فرد واحد على أن يأتوا بمثل هذا القرآن •

فاذا كانت كل الحقائق تقول بأن الإنس وحدهم لن يتفقوا على القيام بعمل واحد ما ، لأن الأختلاف سجية فيهم ، فكيف يتسنى للإنس على اختلاف مشاربهم والجن على اختلاف أهوائهم أن يتفقوا جميعا على محاولة تحدي القرآن الكريم للإتيان بمثله • والحقيقة أن الآية الكريمة تتحدى الثقلين فى أقوى صور التحدى بأنهم لن يستطيعوا أن

---

(١) آية ، ٢٦ ، ٢٧ .

يأتوا بمثل هذا القرآن • وحيث إنه لم توجد ولن توجد الفئة التى تستطيع أن تجىء بمثل هذا القرآن أو عشر سور من مثله أو سورة واحدة من مثله ، فالمطلوب من كل الجماعات أن تعتقد بأن هذا القرآن من عند الله تعالى ، ولتتبع تعاليمه فانه يهدى للطريقة التى هى أقوم •

وحيث إنه لو صح أن كان ثمة قبول للتحدى بالقرآن ، فالمنتظر أن يكون من الإنس ابتداءً ، وفى عجزهم عجز لسواهم ، فاننا نود أن نبحث خلال العصور عن الجماعة من الإنس التى تعتبر بحكم ظروفها أكثر الجماعات استعدادا لقبول التحدى بالقرآن فى سورة الإسراء وغيرها ، حيث إن التحدى اذا كان هنا بكل القرآن ففى غير هذا الموضع تحد بعشر سور فقط من مثله ، بل بسورة واحدة من مثل أقصر سور القرآن الكريم كالكوثر أو الاخلاص فضلا عن طوالها • واللطيف فى الأمر أننا باستعراضنا لكل العصور ، لا نجد جماعة تماثل مشركى مكة على عهد النبى صلى الله عليه وسلم فى تهيؤ الوسائل لقبول التحدى لو أن تلك الوسائل تنفع أو تسعف • وحينما يقدر لتلك الجماعة النموذجية أن تنهزم فى مجال البيان الذى تتفوق فيه شر هزيمة ، فلا ضير بعد ذلك أن تعترف كل الجماعات بالهزيمة تبعاً لهزيمة الجماعة النموذجية • وهذه القضية الحيوية تحتاج منا فى واقع الأمر الى شىء من بسط القول فيهـا •

شاءت إرادة الله تعالى أن يتفوق العرب قبل الإسلام فى مجال البيان حيث كان الشعر والخطابة بالذات هما الشغل الشاغل للعرب • وكان تفوقهم فى هذين المجالين بالذات على حساب مظاهر فنون القول الأخرى ، وعلى حساب بعض مظاهر الفنون الأخرى • فإذا ألقينا نظرة شاملة على سكان الجزيرة العربية آنذاك ، وبحثنا بينهم عن أكثر الجماعات تفوقا فى مجال البيان لتبينا ببساطة أنها قبيلة قريش ، التى بعث فيهـا المصطفى صلى الله عليه وسلم • فقد كانت ثمة أسباب ، بعضها خارج عن ذوات القرشيين وبعضها متصل بالقرشيين أنفسهم ، ساعدت على تبوأ قريش زعامة العرب قبل الاسلام لغويا •

ويمكن أن نلخص الأسـباب الخارجة عن ذوات القرشيين فى كون القرشيين يزارون من قبل كل القبـائل العربية فى عقر دارهم أو فى الأماكن القريبة من دارهم • وقد أتاح لهم ذلك أن يحيطوا علما بما أنتجته قرائح كل العرب من ألفاظ وتعابير • وإنما كان القرشيون يزارون

بأكثر مما يزورون لأنهم سكان مكة التى بها البيت الحرام الذى يزوره العرب فى مواسم معيّنة بقصد الحجّ والعمرة ، ولأنهم يسكنون قريبا من أهم أسواق العرب وفى مقدمتها سوق عكاظ • وكانت هذه الأسواق أدبية ولغوية إضافة الى كونها اقتصادية ومادية • وبحكم منزلة قريش الدينية ، أتيح لهـا أن تفرض سيادتها اللغوية •

والذى قوّى من قدرة قريش على فرض سيادتها اللغوية الأسـباب المتعلقة هذه المرة بالقرشيين أنفسهم • فقد أتيح لهم إضافة الى الفصاحة والقدرة على البيان ، دقة ذوق ورهافة إحساس وصفاء نفس ، تجلّى كل ذلك فى قدرتهم على انتقاء أجمل ما ابتدعته العرب من ألفاظ وطرائق تعبير ، وفى قدرتهم على تجنب عيوب القول المبعثرة فى قبائل العرب •

لقد كانت قبيلة قريش مثلا تميل الى التسهيل ، بأن تقلب الهمزة ياء فتقول خاسيا وشـيّا وما الى ذلك بينما كانت قبيلة تميم تنبر ، أى تنطق الهمزة فتقول خاسئا وشيئا • وحيث إن النبر أجمل من التسهيل ، فان هذه الحقيقة لم تخف على القرشيين المرهفى الإحساس ، وبالتالى استعاروا النبر من تميم ، فصاروا ينبرون بعد أن كانوا يسهلون[1] •

والحقيقة أن هذه الأسباب مجتمعة أتاحت للقرشيين أن يكونوا أئمّة العرب لغويا • ولا غرابة بعد ذلك أن يحتضن كل العرب لغة قريش فتصبح لغتهم الأدبية من أقصى الجزيرة الى أقصاها •

وقد تجلت قدرة القرشيين على تبيّن مواطن جمال القول وجلاله ، فى إصغاء مجموعة من ألد أعداء الاسلام ، للمصطفى صلى الله عليه وسلم الليالى الكاملة ذوات العـدد وهو يرتل فى مكة المكرمة القرآن الكريم ترتيلا • فكانت هذه المجموعة قادرة على أن تنسى وجودها الليل كلّه وهي تصغى لمـا فهمت وما لم تفهم من القرآن الكريم الذى تسمع • ولا تشعر تلك الجماعة بوجودها إلا بعد أن يشقّ الفجر الساطع أديم السـماء فيتوقف المصطفى صلى الله عليه وسلم عن القراءة • وهذه القدرة على تبيّن مواطن الجمال وتذوقه فيما تسمع • ولو كان المتكلم ألد أعدائها ، لأكبر دليل على ما عرفت به قريش من فصـاحة ودقة ذوق ورهافة إحساس وحسن انتقاء •

---

(١) دراسات فى فقه اللغة د. صبحى الصالح ، ص ٧١ ، ٧٢ .

وهكذا يتبيّن أنه أتيح للقرشيين على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم من الظروف ما لا يمكن أن يجتمع خلال العصور لجماعة من الجماعات التى تناوىء القرآن والاسلام • لقد تهيأ لمشركى مكة الاتصال المباشر الدائم بالنبى صلى الله عليه وسلم والاستماع اليه لمدة ثلاثة عشر عاما ، والبغض له وللدين الذى ارتضى الله تعالى لعباده • وكانت كل هذه الوسائل كفيلة بأن يسخرها كفار مكة وهم الفصحاء بالسليقة للإتيان بما يشبه القرآن الكريم لو أنه مما يمكن أن يأتى بمثله البشر • وحينما يعجز هؤلاء الفصحاء بالسليقة عن الإتيان بمثل هذا القرآن فمن باب أولى أن يعجز المعاصرون الآخرون الذين يقلون بغضا لشخص الرسول الكريم وللدين القويم ، وأن يعجز المتأخرون الذين ضعفت ملكة الفصاحة فيهم لضعف السليقة اللغوية بل لذهابها الى غير رجعة • وهذه الحقائق تقتضى منا استعراضا سريعا لخط سير اللغة العربية الذى سنتحدث عنه من زاويتين : زاوية الفترة السابقة للإسلام المبينة لحظ مشركى مكة الموفور من اللغة • وزاوية الفترة الإسلامية المبينة أن غياب تلك الجماعة النموذجية من على مسرح الأحداث يعنى عدم وجود جماعة أخرى خلال عصور التاريخ ، تستطيع أن تخلف الجماعة النموذجية تلك ، فى كون حظها من اللغة مماثلا بل ولا قريبا من المماثلة لحظ تلك الجماعة •

فى حديثنا عن اللغة العربية قبل الاسلام نريد أن نبدأ توا من أوضح المعالم وهى أن اللغة العربية استفادت أيما فائدة من انعزال العرب فى جزيرتهم التى تعتبر أكبر شبه جزيرة فى الدنيا • فكانت قادرة على تلبية كل رغائب العرب • فهى وان كانت قد أغرتهم فى كثير من الأحيان بالرحيل بقصد الكيد أو النجعة ، فقد كانت لهم الشفاء مما أغرتهم به اذ كان تنقلهم داخلها • وقد أتاح هذا الانعزال فترات طوالا أن تبرز للغة العربية شخصية مستقلة خاصة بها ، اذ نهضت بالخصائص التى وجدت بسيطة هينة فى اللغات السامية التى تنتمى العربية الى أرومتها • ونعنى فى الدرجة الأولى بهـذه الخصائص ظاهرة الاعراب وظاهرة الاشتقاق • هذا الى القدرة الفائقة على التعبير عن أدق المعانى فى المظاهر الثلاثة للفظة أعنى الفعل والاسم والحرف • كما أفاد انعزال العرب مدة طويلة فى جزيرتهم وهم الأميون الذين يعتمدون على الأذن والسماع بأكثر من اعتمادهم على العين قراءة وكتابة ، من زوايا ثلاث :

( أ ) الحرف المنطوق به المسموع •

(ب) بنية اللفظة المفردة •

(جـ) تركيب العبارة •

أما من ناحية الحرف المنطوق به المسموع ، فالمعروف عند علماء فقه اللغة أنه ليست هناك اللغة التى تضارع اللغة العربية فى استفادتها من مخارج أصوات الحروف وتوزيعها الحروف على سلم المخارج توزيعا عادلا وسليما وموفقا • وكانت النتيجة أن الناطقين بالضاد لا يكادون يجدون كبير صعوبة فى تعلم أية لغة أجنبية • ويكفى أن نشير بهذه المناسبة الى حقيقتين • أولاهما هى أن اللغة العربية تشترك مع أخواتها الساميات فى الحروف التى تنتظمها فى الترتيب الأولى للأبجدية العربية قبل الإعجام هذه الألفاظ : أبجد هوز حطى كلمن سعفص قرشت • بينما تنفرد اللغة العربية عن أخواتها بهذه الحروف التى تجمعها لفظتا : ثخذ ضظغ • وثانية الحقيقتين هى أن أحد عشر حرفا فى الأبجدية العربية ليس لها مقابل فى الحروف اللاتينية •

وأما من ناحية بنية الكلمة فقد استفادت من انعزال العرب طويلا فى جزيرتهم إذ اتجهت البنية بمرور العصور الى قلة عدد الحروف ، هذا الى أن كل صيغة عبارة عن قالب صوتى تصاغ فيه كل الألفاظ التى تعود الى الأصول اللغوية المتساوية فى عدد الحروف ، كاسم الفاعل واسم المفعول والصفة المشبهة وما الى ذلك • وهنا نجد اللغة العربية تستفيد أكبر فائدة جنتها لغة من ظاهرة الاشتقاق • وكانت هذه القوالب الصوتية ، من أكبر الأدلة التى اعتمد عليها علماء فقه اللغة من كون اللغة العربية ينبغى أن يعود تأريخها الى ماض جد موغل فى القدم لا يكاد يقل عن أقدم اللغات التى عرفتها الإنسانية •

وأما من ناحية تركيب العبارة فالحقيقة أنها نتيجة طبيعية لاستغلال حروف الأبجدية كل درجات سلم مخارج الأصوات ولكون اللفظة العربية عبارة عن قالب صوتى • ومن ثم كان من أهم مميزات تركيب العبارة العربية أن لها حظا موفورا من تلاؤم الأصوات ، فى الشعر والنثر على السواء •

والذى أعطى العربية مزيدا من الحرية فى الأستفادة من ظاهرة تلاؤم الأصوات ، هو ظاهرة الإعراب التى لم تستفد منها لغة استفادة اللغة العربية ، بما فى ذلك أخواتها الساميات •

كان عرب ما قبل الإسلام وفى مقدمتهم القرشيون لا يعرفون ما نسميه نحن باللحن ، دليلا فى عرفنا على ضعف العلم بالاعراب أو عدمه . وإنما كان القوم لا يلحنون لأنه كانت فى ذلك الوقت لغه واحدة فقط ، هى التى نسميها بالفصحى تمييزا لها عن العامية التى وجدت بعد أن احتك العرب فى ظل الاسلام بالأعاجم داخل الجزيرة العربية أو خارجها .

وظاهرة الاعراب هذه ، من أهم الأسباب التى جعلت نظرية النظم التى اكتشفها الامام عبد القاهر الجرجانى ، يكمن فيها السر فى إعجاز القرآن الكريم . وحيث ان النظم الذي تكمن فيه البلاغة — وإعجاز القرآن الكريم — هو ترتيب المعانى فى النفس فانتقاء الألفاظ وفق المعانى المرتبة فى الصورة التى ارتضتها النفس ، وحيث إن الإعراب يعطى لناظم الكلام حرية كبرى فى تقديم الألفاظ وتأخيرها وفق القواعد النحوية أو وفق المقتضيات البلاغية ، لأن الإعراب بطبعه يحتفظ للفظة بمعناها فى تركيب الكلام أينما وضعت ، ففى ضوء هاتين الحقيقتين نستطيع أن نفهم لماذا نعتبر إتقان العرب قبل الاسلام بالفطرة لظاهرة الإعراب ، من أهم مقومات السليقة اللغوية السليمة عند هؤلاء ، وفيهم القرشيون ، بل وفى مقدمتهم القرشيون . لأن إجادة الإعراب يعنى ببساطة صحة إدراك القصد من رفع اللفظة أو نصبها أو خفضها وما الى ذلك ، وصحة إدراك مرامى الكلام البعيدة حينما تتحرك هذه اللفظة أو تلك من مكانها المعتاد . هذا ، وان تحرك الألفاظ من أمكنتها المعتادة كثير كثرة فائقة فى اللغة العربية ، وهى حركة موزونة ومقدرة ومضبوطة بفضل ظاهرة الاعراب هذه .

فما الذى حدث لظاهرة الإعراب هذه وكيف تسرب اللحن الى اللسان العربى ؟ لقد فسدت السليقة اللغوية فتسرب اللحن بسبب الاختلاط بالأعاجم فى ظل الاسلام . ويتضح ذلك من الاستعراض السريع للغة .

فى نهاية القرن الأول للهجرة ظهر مبدأ تنقية اللغة العربية بسبب الاختلاط بالأعاجم ، وقد ظهر هذا المبدأ فى المدن أولا ، وفى مقدمتها مكة المكرمة والمدينة المنورة . وفى القرن الثانى للهجرة كانت البادية هى المكان الوحيد الذى سلمت سليقة أهله اللغوية . فكان كل أعرابى فى البادية هو الحكم العدل إزاء أى خلاف لغوى بين العلماء . وذلك

يعنى أن فساد السليقة اللغوية قد شمل كل المدن • وفى القرن الثالث للهجرة ، بدأ علماء اللغة يوجهون نقدهم للأعراب لتورطهم فى أخطاء لغوية • وذلك يعنى أن فساد السليقة اللغوية أخذ يدب الى البادية وأن علماء اللغة فى المدن عن طريق علمهم المكتسب أصبحوا قادرين على تصيد أخطاء عرب البادية لغويا • وفى القرن الرابع للهجرة ، فسدت السليقة اللغوية تماما فى البادية إثر فسادها التام فى المدن • وفى هذا القرن حلت اللغة الفصحى المكتسبة بالتعلم محل اللغة التى كانت من قبل سليمة بالفطرة والسليقة • وهذا يعنى أننا فى القرن الرابع الهجرى أصبحنا أمام تيارين للغة واضحين هما تيار اللهجات العامية الذى حل محل اللغة السليمة بالفطرة سابقا • وتيار اللغة الفصحى المكتسبة التى تطبق أثناء النطق والكتابة بها تلك القواعد اللغوية التى كان يجيدها بالفطرة والسليقة السابقون • وتيار الفصحى هذا هو الذى نتكلم به ونكتب حينما نريد أن نكون مفهومين لكل الناطقين بلغة الضاد ، لأنها تصاغ فى ذات القواعد التى جاء فيها القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف والتراث القديم وكل ما نطق به ودونه المطبقون لقواعد الفصحى خلال عصور التاريخ •

واذا كان فساد السليقة يعنى التورط فى اللحن ، فانه يعنى أيضا العجز عن ادراك ظاهرة تتميز بها الألفاظ العربية المشتقة ، وهى ظاهرة المعانى الثانوية التى كان القدماء قادرين على إدراكها بالسليقة • وهذه الظاهرة تحتاج الى تبيين •

معروف أن اللغة العربية اشتقاقية ، بل انها أوسع اللغات الاشتقاقية وأكثرها انتفاعا بهذه الظاهرة • فما الذى يرتبط بظاهرة الاشتقاق هذه ؟ يرتبط بها أن كل لفظة مشتقة يجب أن تتضمن كل حروف الأصل أو المادة الأصلية • ولهذا أمكن اعادة المشتقات الى الأصول التى تفرعت عنها • ولم يستطع الزمن بشأن اللغة العربية مهما طال أن يقطع الوشائج بين الألفاظ المشتقة وبين الأصول التى تفرعت منها • وقد ارتبط بهذه الحقيقة حقيقة أخرى هى لب حديثنا وجوهره • وهى أن اشتمال اللفظة المشتقة على حروف المادة الأصلية كان معناه أن اللفظة التى وضعت لمعنى بعينه ، ومن الجائز خلال العصور أن تتقلب فى معنى آخر ومعان أخرى — يجب أن تشتمل فى جوهرها أو دمها على معنى المادة الأصلية • فكأن اللفظة المشتقة تفيد أولا المعنى الذى وضعت

له ، ويرتبط ضرورة بهذا المعنى الأولي معنى ثانوى ، هو الذى تفيده أساسا المادة الأصلية .

ولتوضيح هذه العجيبة اللغوية للغة العربية نضرب مجموعة من الأمثلة . نحن نقول السماء . ونريد بذلك القبة التى تغطى الفضاء بزرقتها وشمسها نهارا ونجومها البراقة وقمرها المنير ليلا . هذا هو المعنى الأولى للفظة السماء . ولكن هناك معنى آخر تفيده اللفظة ، وقد جاءها هذه المرة من الأصل الذى اشتقت منه . أما هذا المعنى الآخر أو الثانوى ، فانه السمو والارتفاع . لأن السماء مشتقة من السمو . وهناك مثل آخر . اننا نطلق لفظة الخيل على ذلك الحيوان المعروف ، وهذا هو المعنى الأولى للفظة . ولكنها تفيد معنى آخر ثانوى هو الخيلاء والتبختر ، وهما صفتان من أخص صفات الخيل التى أخذ اسمها أساسا من الخيلاء . وقس على ذلك هذه المجموعة من الألفاظ التى تدل على مجموعة من الأمكنة : الدار والمسكن والمنزل والبيت . فلهذه الألفاظ معان ثانوية قادرة على الايحاء بالزوايا التى نظر خلالها العرب لتلك المسميات . فلمحوا فى الدار الاستدارة ، وفى المسكن السكينة والطمأنينة ، وفى المنزل مكان النزول ، وفى البيت مكان البيتوتة وهكذا . لقد كان العرب على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم قادرين بالفطرة والسليقة على ملاحظة هذه المعانى الثانوية أما المتأخرون فلا .

وما معنى القدرة على تمثل المعانى الثانوية إضافة الى المعانى الأولية ؟ معناه أن اللغة غضة طرية وأن العبارة أو الجملة ، قادرة على الايحاء بالمعنى الأولى ويظل المعنى أو معنى المعنى إن صح هذا التعبير . ولماذا كان العرب فى ذلك العصر قادرين على تمثل تلك المعانى ؟ لأن العلاقة واضحة فى أذهانهم بين الاسم وبين الزاوية التى نظر العرب خلالها الى المسمى ومن أجلها أطلقوا هذه اللفظة دون تلك . فهم لاحظوا فى السماء سموها وارتفاعها ، وفى الخيل خيلاءها ، وفى الكتاب الكتابة التى عليها يشتمل ، وفى البيت مكان البيتوتة وهكذا . وما معنى تمثل هذه الجماعات لتلك العلاقات بين الألفاظ وما وضعت دليلا عليه بين الأسماء ومسمياتها ؟ معناه أن هذه الجماعات تتمتع بيقظة فكرية ونشاط ذهنى ، هما وليدان طبيعيان للحياة التى عاشتها هذه الأجيال صورة طبق الأصل لتلك الحياة التى عاشتها الأجيال السابقة . المزارعون يعيشون ذات الحياة الزراعية

التى عاشها الآباء والأجداد ، ويتعاملون مع ذات المسمّيات التى يتعامل معها الآباء والأجداد . والرعويون يعيشون كذلك ذات الحياة التى عاشها الآباء والأجداد ويتعاملون مع المسمّيات ذاتها . وهكذا التجار وسواهم . فلم تعرف تلك الجماعات المختلفة لقرون قبل الإسلام ، الهزات العنيفة والتقلبات الاجتماعية التى من شأنها أن تحدث فى اللغة آثارا بعيدة المدى . إنما عاش العرب لقرون وقرون منعزلين أو شبه منعزلين فى جزيرتهم العربية الطويلة العريضة التى أشبعت فيهم كل الرغبات . ولم يستطع الزمن بشأن اللغة أن يقضى على المعانى الثانوية التى كانوا قادرين دائما على تمثّلها لهذا السبب ولكون اللغة اشتقاقية فللفظة المشتقة معناها الأولى ، ومعناها الثانوى الذى جاءها من اشتمالها دائما وأبدا على حروف الأصل الذى اشتقت منه وتفرّعت عنه .

وحيث إننا نحن الآن ، على الرغم من بعد العهد بأقدم النصوص اللغوية التى تعود الى عصر ما قبل الاسلام ، نستطيع دائما وأبدا أن نعيد كل لفظة مشتقة الى الأصل الذى اشتقت منه ، اذ لم يستطع هذا الزمن المتطاول أن يباعد ما بين اللفظة المشتقة وأهلها الذى اشتقت منه ، فان هذا الشىء ذاته ينبغى أن يقال عن العصور السابقة ، بل إنّ الأمر بشأن تلك العصور أقرب تناولا وأشد وضوحا ، لأن السّليقة اللغوية كانت كاملة الصحة والسلامة .

ولا شك أن هذه القدرة على تبيّن العرب على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفى مقدمتهم القرشيون للمعانى الثانوية للألفاظ أوّلا وللعبارات ثانيا من أهم الأسباب التى جعلتهم يُفتتَنُونَ بالقرآن الكريم لدرجة أن أساطين الكفر ، فى الوقت الذى يسمحون لأنفسهم بالإصغاء خِلسَةَ الليل كله للمصطفى صلى الله عليه وسلم وهو يرتل فى منزله بمكة القرآن ترتيلا ، هم يحولون بكل الوسائل بين الناس وبين الإصغاء للمصطفى صلى الله عليه وسلم وهو يرتل القرآن الكريم فى المسجد الحرام . وقد أنزل الله تعالى فى هذا الشأن قوله فى هذه السورة الكريمة : ﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا ﴾ والمعنى أن عليك يا محمد أن تقرأ القرآن الكريم فى صلاتك فى صوت يتوسط الجهر والهمس ، كى يتسنى الإصغاء لمن حَرَصَ عليه . لأنك لو جهرت لخاف الراغبون فى سماع القرآن الكريم أن يفطن أساطين

الكفر لرغبتهم ولو همست لم يستطع الراغبون فى السّماع أن يسمعوا شيئا • فعليك بالطريق الوسط •

وينبغى أن نقرر بهذه المناسبة أن القرآن الكريم لم يلو لحظة من اللحظات للغة العربية عنقا ، ولم يقسرها على السير فى غير الطريق الذى ارتضته • وكيف يفعل القرآن الكريم ذلك وهو المعجزة الكبرى للمصطفى صلى الله عليه وسلم التى تحدّى بها العرب الذين لم يكونوا يجيدون شيئا إجادتهم لفنّ القول فى هذا اللسان العربى المبين • ومعروف أن طبيعة التحدّى أن يتناول أهم جانب نبغ فيه القوم • لذا جاء القرآن الكريم فى ذات الصيغ والتراكيب التى نبغ العرب ، وفى مقدمتهم القرشيون ، فى الانتفاع بها للتعبير عن نبضات قلوبهم ووساوس نفوسهم ودقائق أفكارهم • واذا بكلّ هؤلاء يفاجأون بأن ما يسمعون من قرآن معجز إنما جاء فى ذات الألفاظ والتراكيب التى هم بها عارفون ولها مستعملون • واعترف الجميع بالعجز عن الإتيان بسورة واحدة من مثل هذا القرآن الكريم • ولا شك أنه سبق الاعتراف بالعجز فهم لمعانى القرآن الكريم وإدراك لمراميه • وما كان لشىء من ذلك الفهم أن يتمّ لولا السليقة اللغوية كما بينا ، تلك السليقة التى جعلت العرب ، وفى مقدمتهم القرشيون ، قادرين على الإبداع والإمتاع أثناء التعبير ، وعلى إدراك مواطن الجمال فالتجاوب والانفعال ، وذلك ما حصل تماما منهم بسبب إصغائهم للقرآن الكريم يرتله المصطفى صلى الله عليه وسلم ترتيلا •

واذا كان حديثنا عن المعانى الثانوية قد دار فى مجموعه حول الألفاظ المفردة ، فان ذلك ضالح لأن يكون تمهيدا للقول بأن هذه المعانى الثانوية تكون أكثر وضوحا وأبعد انسجاما وأقوى تأثيرا فى النفوس وافكار حينما تكون الألفاظ فى جمل والجمل فى عبارات • واذا كان كلام البشر قبل الاسلام قادرا على أن يستولى على النفوس والألباب لأن اللغة بعد غضة طرية والسليقة سليمة معافاة ، فكيف بكلام الله تعالى فى كتابه العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه والذى هو الغاية فى تلاؤم أصواته وإحكام نظمه وسموّ معانيه وكثرة مائه ورونقه •

وسنحاول من جانبنا تطبيق نظرية المعانى الثانوية بشأن الآية الكريمة التى نحن بصددها ، آية التحدى بالقرآن الكريم • قال تعالى : ﴿ قل

لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾ ويلاحظ أن نظرتنا الآن للآية الكريمة من هذه الزاوية تعتمد على المعاجم اللغوية التى تسعفنا للوصول الى هذه الغاية بسبب طبيعة اللغة العربية الاشتقاقية فى الدرجة الأولى. فأى الكلمات فى الآية الكريمة أكثر قدرة على الإيحاء بالمعانى الثانوية وعلى الإشعاع بمعانى المعانى ؟ انها بحسب ترتيبها فى الآية : الإنس ، الجن ، القرآن ، ظهيرا . مع ملاحظة أن كل ألفاظ الآية بلا استثناء ، قادرة على الإدلاء بمعانيها التى تطبق نقية من كل شائبة ، وبملابساتها المرتبطة بها الملائمة لها .

فما هى المعانى الثانوية التى كان العرب يفهمونها آنذاك من لفظتى الإنس والجن فى الآية الكريمة ؟ هذه المعانى الثانوية يسعف على إبرازها الطباق بين اللفظتين . ويتضح ذلك من معرفة مدلول لفظة الجن عند العرب . حينما ننظر الى مشتقات هذه المادة نتبين أنها كلها يجمعها الاختفاء عن العين والستر ومن هنا قيل إن كل ما ستر عنك فقد جُنّ عنك يلاحظ هذا مثلا فى لفظة الجنين التى تطلق على الطفل فى بطن أمه فقد لاحظ العرب أن أهم ما يميز الطفل فى تلك المرحلة الاختفاء عن العين وعن كل وسيلة أخرى . فلا يمكن أن يرى أو أن يتبين كنهه حتى يغادر ظلماته الثلاث . كما يلاحظ هذا فى لفظة المجنون التى تطلق على من اختلت قواه العقلية . وكأن العرب تبينوا فى الشخص الذى تطلق عليه هذه اللفظة أن عقله قد غطى وستر فحيل بينه وبين أن يقوم بوظيفته .

فاذا تحولنا الى لفظة الجن تبينا أنها بالإضافة الى أنها تدل على تلك الأمة التى خلقها الله تعالى ، فانها قادرة على الإيحاء بأن أهم ما تتميز به تلك الأمة فى نظر العرب هو أنها مختفية ومستورة عن الأعين والأبصار ، ويرتبط بذلك الكثير من التصورات والأخيلة منها الصحيح ومنها غيره . وإن هذا المعنى الثانوى أو الصفة المميزة للجن فى ذهن العربى ، قادرة على اثارة المعانى الثانوية للفظة الانس بسبب الطباق بين اللفظتين (١)

أما المعنى الأولى للفظة الإنس ، فهو البشر الذين خلقهم الله تعالى فى أحسن تقويم ، وأما المعنى الثانوى ، فهو ما يعرف به هذا الجنس من كونه أنيسا بطبعه أليفا محبا للاجتماع . وحيث إن التضاد من

الوسائل التى تتداعى بها الألفاظ ، وإن الضد — كما يقولون — يظهر حسنه الضد . وحيث إن الزاوية التى نظر خلالها العرب للفظة الإنس هى أن من أهم ما يميز هذا الجنس هو أنه يؤنس به ويرتاح له ، فينبغى أن تكون هذه الصفة ، صفة الأنس ، قادرة على أن تقذف لذهن العربى بالصفة أو الصفات المقابلة للإنس ، حينما يقف على لفظة الجن الملازمة بالتقابل أو التضاد للفظة الإنس . وكأن العربى حينما يقع على مسمعيه قوله تعالى فى الآية الكريمة : ﴿ قل لئن اجتمعت الانس والجن ﴾ فان هذا القول قادر على اثارة كل الصفات التى يختلف فيها الإنس والجن . وأهم هذه الصفات أن الإنس يبصرون والجن لا يبصرون ، وعلى إثارة تعجب السامع مما يعرف ابتداءً أنه محال ، وهو اجتماع هذين الجنسين اللذين يختلفان فى كل شىء تقريبا . اذ كيف يجتمع المبصرون وغير المبصرين ، وأية قضية مصيرية يتفق هذان الجنسان على الاجتماع فى صعيد واحد من أجلها والمعروف أن الانس مختلفون بطبعهم وينبغى أن يكون الجن كذلك قياسا . إن هذه المستحيلات التى كان الغرض القرآنى قادرا على اثارتها ، وخاصة بسبب الطباق والقسم وموضع الآية بالقياس الى ما سبقها من آيات ، قادر على الإلقاء فى روع العربى السليم السليقة بأن مقدمة الآية الكريمة لتوحى بأن الكلام بصدد قضية تعجيزية ، ولا يلبث أن يتبين أن الأمر كما فهم . فالآية الكريمة تثبت أن كل المستحيلات لو فرض أنها تحققت ، ممثلة فى اجتماع الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن فانهم لن يستطيعوا أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم خير عون للبعض الآخر وخير سند .

وما هو المعنى الثانوى أو الثانى الذى كانت لفظة القرآن قادرة على إثارته فى ذهن العربى السليم السليقة ؟ المعنى الثانوى هو أن من أهم صفات القرآن الكريم أن يقرأ فى الصلوات ويتعبد الله تعالى بتلاوته وتدبر معانيه وتطبيق تعاليمه . فالمفروض بشأن القرآن الكريم أن تعيه الصدور وتعمر به النفوس والقلوب ، وتلهج الأمة بقراءته وترتيله ترتيلا وتدبر معانيه . وأن تطبق تعاليمه لأنه يهدى للطريقة التى هى أقوم . وان لم تفعل الأمة ذلك أثمت وصح فى حقها ما جاء على لسان المصطفى صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى من سورة الفرقان[1] : ﴿ وقال الرسول يا رب ان قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا ﴾ .

---

(١) آية ، ٣٠ .

فاذا تحولنا الى لفظة ظهير ، تبيّن أن المعنى الأولى هو المعين والمساعد والنّصير • فما هو المعنى الثانوى الذى كان العربى السليم السليقة يستطيع بداهة أن يدركه ؟ • لا ننسى أن من المعروف لدى الجميع أن أقوى العناصر التى يتكون منها جسم الانسان هى عظامه • وهذه حقيقة لا تخفى على العربى أو سواه ، واليها أشارت على سبيل المثال الآية الكريمة من سورة مريم على لسان زكريا عليه السلام ، قال تعالى[1] : ﴿ قال رب انى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا ﴾ ففى وهن العظم ، الذى هو أقوى أجزاء الجسم ، دليل على ضعف الأجزاء الأخرى التى تقل قوّة • وأى أجزاء العظام ، يعتبر عماد جسم الإنسان بحيث إنّ صحته تعنى غالبا سلامة الجسم وقوته ضمنا ، واعتلاله يعنى اختلال الإنسان وفقده اتزانه وضعفه بل عجزه فى كثير من الأحيان ؟ إنه عظام الظهر أو فقار الظهر • يلاحظ هذا بشأن الإنسان وغير الانسان • وقد فطن العرب إلى هذه الحقيقة فأطلقوا لفظة الظهر لمعان عِدة ، يجمعها القوة والصحة وحصول النفع ، باعتبار أن سلامة فقار الظهر تعنى ضمنا سلامة أجزاء العظام الأخرى وسلامة الجسم ، وباعتبار أنّ أىّ خلل فى فقار الظهر ، لا يغنى غناءه سلام كل الأجزاء الأخرى لعظام الجسم • وحيث إنّ الظّهرَ السليم ، والمراد أساسا عظامه ، تعتبر فى نظر العربى رمزا للقوة ، فانه اشتق من الظهر لفظة الظّهير دليلا على القوىّ القادر على العون والمساعدة • إنّ المعنى الأولى للفظة ظهر والمعنى الثّانوى أو المعانى الثانوية فى الصورة التى بينا ، كان العربى وقت نزول القرآن الكريم قادرا على إدراكها لسلامة سليقته اللغوية وصحة طبعه •

واذا كانت الألفاظ الأربع التى وقفنا عندها مليا تتدفق كلها بالمعانى الثانوية ، فينبغى أن نقرر أن كل لفظـــة وراء ذلك فى الآية الكريمة ، لها دورها ، بمعناها الأولى ، أو به وبالمعنى الثانوى أيضا ، فى إبراز المعانى الثانوية للألفاظ التى وقفنا عندها مدة أطول • وكأن الهدف الكريم الذى تنشده الآية الكريمة وتحققه ، إنّما تصل اليه من مجموع المعانى الأولية والثانوية فيها ، وبراعة النظم القادر على إظهار تلك المعانى فى أقوى الصور تدفقا بالنشاط والحيوية • وينجم عن ذلك ارضاء للعقل وإرواء للشعور فى طريقة من التوازن عجيبة لا توجد فى غير القرآن الكريم •

---

(١) آية ٣

وفى سبيل توضيح هذه الحقيقة نحن بحاجة الى المرور على كل لفظة لم نقف من قبل عندها ، مراعين ترتيب موقعها فى الآية الكريمة . وأول ما يصادفنا جملة : « قل » المعمقة لمضمون الآيتين السابقتين من كون دور المصطفى صلى الله عليه وسلم بشأن القرآن الكريم يقتصر على التلقى . وها هو ذا عليه الصلاة والسلام يؤمر بأن يقول للمستكبرين الماكرين كذا وكذا . ثم إن جملة قل قادرة على الإيحاء بقرب مكان المخاطب من المتكلم .

فاذا تحولنا الى جملة القسم الشرطية تبين أننا بصدد طريقة من التعبير شديدة اللهجة عميقة المغزى ، إذ المعنى والله لئن اجتمعت الإنس والجن .

فاذا تحولنا الى جملة اجتمعت تبين أن لها أكبر الدور فى إبراز المعانى المتقابلة لكل من لفظتى الإنس والجن كما مر بنا . وما الهدف الذى من أجله تم هذا الاجتماع العجيب النادر بين الانس والجن ؟ لقد نصت عليه الجزئية الثانية : « على أن يأتوا بمثل هذا القرآن » ويلاحظ أن حرف الجر على هو الذى يأتى هنا وليس القول لكى مثلا . وهذا العدول الى الحرف الدال أساسا على الاستعلاء قادر على تضمين جملة اجتمعت معنى جديدا مرتبطا بالهدف من هذا الاجتماع ونستطيع أن نقول عن هذا المعنى الجديد هو التعاون . وكأن السياق يقول : قل لئن اجتمعت الانس والجن وتعاونت على أن يأتوا بمثل هذا القرآن الى آخر الكلام . إنه تعاون تفيده جملة « يأتوا » القادرة على الإيحاء بأن كلا من الإنس والجن قد عادوا مجموعة واحدة ، وتقويه لفظة « ظهيرا » التى تظهر هذه المجموعة قمة فى التعاون .

( ١٧ )

# كفار مكة يطلبون ... مجموعة من الخوارق وأسباب ذلك وجزاؤهم

والعجيب فى أمر هؤلاء الكفار من قريش أنهم لم يستفيدوا بشأن القرآن الكريم ــ كما لم يستفد المعاندون أمثالهم ــ من كفاءتهم اللغوية وقدرتهم الفائقة على تذوق جميل القول وتبجيله • والسبب فى ذلك أن حسدهم أكبر من عقولهم مع ما عرفوا به قبل من عدل وإنصاف وعلى الرغم من أن فى القرآن الكريم العديد من ضروب القول التى ينزل كل ضرب لحسنه وجلاله منزلة المثل الذى يلصق بالقلوب ويعلق بالأذهان ، فلا تملك النفس الا أن تستشهد به وتستأنس واعية وغير واعية • وإلى موقف القرشيين وأمثالهم أشارت الآية الكريمة التالية • قال تعالى : ﴿ ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس الا كفورا ﴾ •

ولا يخفى أن هذه الآية الكريمة تعنى كلا من مبنى القرآن ومعناه ، نظمه ومضمونه • وما أشد البون بين القرآن الكريم من ناحية وبين ما أنتجته آنذاك قرائح العرب من منظوم ومنثور • والذى يدل على أن النفس الأمارة بالسوء لهؤلاء الجاحدين هى المسيطرة عليهم ، أنهم يفسحون فى صدورهم ونفوسهم وأذهانهم أمكنة كبيرة لكل كلام البشر الذى فيه الغث والسمين ، بينما هم لا يسمحون بمكان واحد لشىء من القرآن الكريم • لذا هم يرفضونه جملة وتفصيلا ، حسدا من عند أنفسهم وبغيا •

والعجيب أيضا أن كفار مكة يتنكرون لمعجزة القرآن الخالدة ويطلبون جهلا منهم وحمقا ، خوارق أخرى ، ما يصح تحقيقه منها أقل مفعولا من القرآن الكريم ، وما لا يصح تحقيقه ، وهم يعرفون ذلك ، يريدون به تعجيز المصطفى صلى الله عليه وسلم • وهذه هى الخوارق الست التى طلب كفار مكة من المصطفى صلى الله عليه وسلم تحقيقها • قال تعالى : ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا •

أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا • أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا • أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء • ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه • قل سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا ﴾ •

ولا يخفى أن الخوارق المادية التى فى اعتقاد كفار مكة إمكانية تحقيقها ثلاث ، هى : تفجير الينبوع ، وأن تكون له عليه الصلاة والسلام جنة من نخيل وعنب ، وأن يكون له بيت من ذهب • وأن الخوارق التى هى فى حكم المستحيل ثلاث أيضا هى •أن يسقط السماء عليهم كسفا ، وأن يأتى بالله تعالى والملائكة قبيلا ، وأن يرقى صلى الله عليه وسلم فى السماء وينزل عليهم كتابا يقرؤن بأنه رسول رب العالمين •

وينبغى أن نقرر ابتداءً أن هذه المتطلبات الستة التى سجلتها الآيات الكريمة ، تعبر عن رغبات عدد من الأفراد المكيين أو الجماعات ، وذلك يعنى أن كفار مكة المعاندين يمثلون كتلا من الأهواء المختلفة ، يجمعها على اختلاف درجاتها من التطرف البغيض، للدين الجديد الذى ارتضى رب العزة لعباده • وذلك يعنى أننا بحاجة إلى أن نقف عند كل من هذه التحديات كى نتبين مدى تطرفه وما ينعكس فيه من نفسيات المدلين به •

إن أول هذه التحديات طلب تفجير الينبوع • والى ذلك أشار قوله تعالى : ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ﴾ ولا يخفى أن الدافع للإدلاء بهذا الطلب أو التحدى مادى نفعى • فقد نظروا الى أرض مكة التى يشقها واد غير ذى زرع عند بيت الله الحرام وتبينوا أن أهم ما ينقصهم هو الماء الذى يستخرجون بشق الأنفس ويستحضرون ، والذى يحتاجون منه وقت المواسم بخاصة كميات كبيرة • لذا كان فى اعتقادهم أن تفجير عين ماء ثرة بأرض مكة عمل غاية فى الصعوبة والإعجاز • وحيث إنهم لم يكونوا مستعدين لتدبر القرآن الكريم ، بل كانوا حريصين على إشباع النزعات المادية فيهم ، إذن فليكن تحديهم للرسول صلى الله عليه وسلم متمثلا فى طلب تفجير عين ماء بأرض مكة • وماذا عليهم أن يتقدموا بطلب كهذا وهم المصممون على عدم التصديق برسالة المصطفى صلى الله عليه وسلم سواءً تحقق طلبهم أم لم يتحقق • إذا تحقق طلبهم فقد نالوا غاية المنى ، إذ اجتمع لهم حل مشكلة الماء الكبرى التى منها يعانون ،

والبقاء على دين الآباء والأجداد . واذا لم يتحقّق طلبهم فذلك يعنى وفق فهمهم السقيم أن محمدا غير صادق فى دعواه متناسين أن القرآن الكريم أكبر من طلبهم .

وقبل أن نتحوّل الى الطلب الثانى لكفار مكة نود أن نقرر حقيقتين . الأولى هى أن تجارب الأنبياء السابقين مع أقوامهم أثبتت أنهم بعد أن تلبّي السماء طلباتهم يظلّون على كفرهم وعنادهم . والى ذلك أشار مثلا قوله تعالى فى سورة الأنبياء[1] : ﴿ بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون . ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون ﴾ . والحقيقة الثانية هى أن الاصرار على الكفر بعد تلبية الطلب وتحقيق الخوارق يعنى استئصال القوم الكافرين . وحيث إنّ إرادة الله تعالى ، تكريما لسيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم ، لم تشأ استئصال المكذبين من هذه الأمة إنّما الامهال . فان كل طلبات أولئك الحمقى لم تتحقق ، لأنه سبق فى علمه تعالى أنهم سيصرّون على الكفر . والى هذه الحقيقة أشارت مثلا الآيات المتقدمة من سورة الحجر[2] : قال تعالى : ﴿ وقالوا يا أيها الذى نزل عليه الذكر انك لمجنون . لو ما تأتينا بالملائكة ان كنت من الصادقين . ما تنزل الملائكة الا بالحق وما كانوا اذن منظرين . انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون ﴾ .

فاذا تحولنا الى الخارقة الثانية تبين أنها لا تكاد تختلف فى شىء عن الأولى . إنّ هؤلاء يطلبون منه صلى الله عليه وسلم أن تكون له فى الوادى غير ذى الزرع بأرض مكة جنة من نخيل وعنب وأن يفجر الأنهار خلالها تفجيرا . قال تعالى : ﴿ أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا ﴾ . فهذا الطلب يتفق مع سابقه فى تفجير الينبوع بأرض مكة ويزيد عليه بأن يكون ماء هذا الينبوع متدفقا فى جنة للنبى صلى الله عليه وسلم بأرض مكة . ومن أهم ما تشتمل عليه تلك الجنة النخيل والعنب . أما النخيل فلأن ما يطرح من ثمر يكاد يكون غذاء أوليا لبعض العرب . وهذا الجزء من الطلب فى حدّ ذاته معقول ، ولكن لماذا يردف هؤلاء بالنخيل العنب ؟ قد يقول قائل إنّ السياق ينزل ثمر النخيل منزلة الطعام والعنب منزلة الفاكهة . وهذا

---

(١) آية ٥ ، ٦

(٢) آيات ٦ ــ ٩

رأى يبدو للوهلة الأولى سديدا • ولكن ينبغى أن ندرك الأغراض التى يستخدم العرب قبل الاسلام من أجلها الأعناب • انهم فى الوقت الذى يتخذونها فاكهة هم يستخرجون منها ما يخامر عقولهم ويغطيها • ويبدو أن هذا الأخير هو الهدف الأكبر لكفار مكة من طلبهم • فكأن طلب القوم فى جملته وفى تفصيله ، يدل على نظرتهم المادية الخالصة وتكالبهم على المتع الدنيوية الرخيصة وعدم الإحساس مطلقا بأن ثمة جانبا غاية فى الأهمية تحتاجه النفس ، ألا وهو غذاؤها الروحى ، لذا كانت ظلباتهم المادية فى نظرهم أهم من القرآن الكريم الذى انصرفوا عنه انصرافا كليـــا •

وأى طلب من الأربعة الباقية له ذات المدلول المادى على القوم ؟ • انه طلبهم أن يكون له صلى الله عليه وسلم بيت من ذهب • إن القوم لم يؤمنوا لمحمد صلى الله عليه وسلم وهو الذى يرتل القرآن الكريم بين ظهرانيهم ترتيلا ، إنما يزعمون أنهم سيؤمنون لو استجاب صـــلى الله عليه وسلم لتحديهم فكان له بيت من ذهب ! وهل ثمة من فائدة روحية يمكن للنفس أن تجنيها من إنعامها النظر لبيت من ذهب أو حتى جبل من ذهب ؟ لا بطبيعة الحال • ولكن القوم ماديون قلبا وقالبا • ويكفى أن نعرف أن حياتهم قائمة على التجارة ، لذا فان أقرب شىء الى قلوبهم ونفوسهم وأذهانهم وألسنتهم هو المادة وما يحسون فى أعماقهم بأنهم فى حاجة دائمة لاستزادة نفوسهم الجشعة التى لا تشبع منه • إنه الطعام والشراب والمال • ولا تخرج واحدة من الخوارق الثلاث التى تعرضنا لها بالدراسة عن هذه الحدود • كما أن الخوارق الثلاث الباقية لا تخـــرج عن كونها نوعـــا من الاستكبار والاستهتار والاستهزاء • فهى أكثر دلالة على أن القوم مصرون على الضلال والكفر وأنهم يتلهون بأمثال هذه الطلبات • ويتبين ذلك من تأمل الخوارق الثلاث الباقية • قال تعالى : ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا • أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا • أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا • أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه • قل سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا ﴾ •

وهذه أولى خوارق المجموعة الثانية ، قال تعالى : ﴿ أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا ﴾ وواضح أن هذا الطلب ينظر الى قوله تعالى

فى سـورة سـبأ[1] : ﴿ أفلم يروا الى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض ، ان نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفا من السماء • ان فى ذلك لآية لكل عبد منيب ﴾ •

وما معنى أن تنزل عليهم السماء فى هيئة قطع ؟ معناه أن شأفة القوم ستُستأصل فلن ترى لهم من باقية ، وما الذى يفهم من قول كفار مكة انهم سيؤمنون بعد أن تنزل عليهم السماء قطعا تحقيقا للتهديد الذى تضمنته آية سورة سبأ ؟ الذى يفهم أن القوم يأخذون جـد الأمور مأخذ اللهو واللعب • ففى الوقت الذى تذهب نفس المصطفى صلى الله عليه وسلم حسرات لعدم ايمانهم ، نجد من هؤلاء من يقول له صلى الله عليه وسلم سأومن لك اذا أسقطت علىّ السماء قطعا ، ويعرف هذا القائل جيدا أن نزول السماء فى الصورة التى فهم وطلب يعنى موته • ولكنه يعرف جيدا أيضا أن القضية كلها حسب اعتقاده لهو ولعب ، فلماذا لا يجىء على لسانه ذلك الطلب الذى يقطر سـخرية واستهزاء • قال تعالى على لسان هؤلاء : ﴿ أو تسقط السماء كمـا زعمت علينا كسـفا ﴾ •

فاذا تحولنا الى الخارقة الثانية تبين أن كفار مكة يطلبون منه صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بالله تعالى والملائكة معاينة ، أو كفيلا وشاهدا بصدقه ومعه الملائكة المقربون • ولا يجهل كفار مكة أن الطلب الذى هو أقل من هذا ، كطلبهم أن يأتيهم بالملائكة أو بملك واحد فقط ، لم يتحقق ، ومع ذلك فهم يتحولون الى طلب غاية فى الخطورة دليلا على استهانتهم بكل شىء • وظنا منهم أنه صلى الله عليه وسلم برفضه طلبهم يكسبون الجولة ويعلنون على الملأ عجزه •

واذا تحولنا الى الخارقة الثالثة والأخيرة تبين أنها من جنس هذه . فهم يطلبون منه صلى الله عليه وسلم أن يرقى فى السماء • ولا يكتفون بعملية الارتقاء هذه • انما عليه أن ينزل معه كتابا يقرؤه عليهم ومعه مجموعة من الملائكة • تحددها الروايات بأربعة ، يشهدون بصدقه • والعجيب أنهم يطلبون كتابا وبين ظهرانيهم المصطفى صلى الله عليه وسلم يرتل قرآن ربه ترتيلا • وصدق تعالى اذ يقول فى محكم كتابه : ﴿ فبأى حديث بعده يؤمنون ﴾ • والعجيب أن القرآن الكريم ينص فى

---

(١) آية ٩

موضع آخر على أن هذا الطلب لو فرض أن تحقق فرقى صلى الله عليه وسلم الى السماء وهم معه فانهم لن يؤمنوا بل يقولوا انهم مسحورون • قال تعالى فى سورة الحجر[1] :﴿ ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون • لقالوا انما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ﴾ •

وحينما نبحث عن السر وراء طلب كفار مكة كل تلك التحديات المتلاحقة منه صلى الله عليه وسلم • وبعض هذه التحديات يستحيل تحقيقه عقلا ، وبالتالى يصعب تصور طلب كفار مكة له أساسا • فانه يتبين أنهم قد وهموا أنه صلى الله عليه وسلم حينما أخبرهم بأنه رسول رب العالمين ، قد كان يعنى أنه لم يعد واحدا من البشر ولا ينتمى لهم فى قليل أو كثير • وعلى الرغم من أنه عليه الصلاة والسلام أكد لهم فى كل المناسبات أنه واحد من البشر ليس غير ، ولا يختلف عنهم سوى أنه عز وجل قد اصطفاه بالرسالة ، وأنه لا يقوم بغير دور الوسيط فى نقل تعاليم السماء ، وفى مقدمتها القرآن الكريم ، فان كفار مكة كان قد استقر فى روعهم أن الرسالة لا يصح أن يقوم بها شخص عادى يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، بل ينبغى أن يكون الرسول من غير البشر ، وان كان منهم فينبغى أن يكون معه الشهود والأدلة على أنه رسول رب العالمين • والى مثل هذا التصور أشار قوله تعالى فى سورة الفرقان[2] :﴿ وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل اليه ملك فيكون معه نذيرا • أو يلقى اليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها ، وقال الظالمون ان تتبعون الا رجلا مسحورا • انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا • تبارك الذى ان شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجرى من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا • بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا ﴾ • وكون الرسول واحدا من البشر ، فتلك سنة الله تعالى ، والى ذلك أشار قوله تعالى فى سورة الفرقان أيضا[3] :﴿ وما أرسلنا قبلك من المرسلين الا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون • وكان ربك بصيرا ﴾ •

وكى تعيد سورة الاسراء كفار مكة الى صوابهم وتوقفهم على خطأ

---

(١) آية ١٤ ، ١٥
(٢) آيات ٧ — ١١
(٣) آية ٢٠

تصورهم لطبيعة الرسول ، يجيء تعقيبا على تحديات كفار مكة قوله تعالى : « قل سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا » .

وواضح أن الخطاب فى هذه الجزئية الكريمة موجه للمصطفى صلى الله عليه وسلم مع أن المتبادر الى الذهن ابتداءً أن يكون التعقيب موجها الى أولئك المعاندين مباشرة . ولا نستطيع أن نقول هنا غير أن هذه الطريقة الحكيمة فى سبيل حمل الخصم على تصحيح موقفه ، تطبيق لقوله تعالى مثلا فى هذه السورة الكريمة : ﴿ وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن ، ان الشيطان ينزغ بينهم ، ان الشيطان كان للانسان عدوا مبينا . ربكم أعلم بكم ان يشأ يرحمكم أو ان يشأ يعذبكم وما أرسلناك عليهم وكيلا ﴾ . فها نحن أولا أمام تطبيق فعلى للدعوة الى سبيل الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة ولقول العبارة التى هى أحسن .

ونستطيع أن نتبين فى الجزئية التعقيبية هذه نوعا من التقسيم وشيئا من التقابل ، ومن شأن الأخير أن يعمق من معنى تنزيه الله تعالى وتربيته خلقه بالنعم التى لا تحصى وأن يبين طبيعة الرسول الذى يختاره الله تعالى من البشر وحدوده التى لا يستطيع أن يتعداها . أما التنزيه وتربية الله تعالى للخلق بنعمه فقد شملها قوله تعالى : ﴿ قل سبحان ربى ﴾ وأما طبيعة رسول الله تعالى وحدوده التى يقف عندها فقد شملهما قوله تعالى : ﴿ هل كنت الا بشرا رسولا ﴾ . ومَن الذى يؤمر بأن ينزهه عز وجل مربيه بالنِّعم ؟ إنه المصطفى صلى الله عليه وسلم كما أمر بأن يؤكد لهم ما سبق أن أخبرهم به من كونه بشرا رسولا وبهذا يبدو التنزيه لله تعالى والإشادة بتربية عبده واضحين تمام الوضوح مرفرفين فى أسمى الآفاق . فاذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم يؤمر بأن يقول : ﴿ سبحان ربى ﴾ فالأولى أن يقول الناس ذلك وفيهم كفار مكة . وانّ تقديم لفظة البشر على الرسول تدل من ناحية على الترتيب الطبيعىّ للأمرين/ومن ناحية أخرى على أن محمد بن عبد الله يظل مع الرسالة واحدا من البشر .

وقد أشار القرآن الكريم فى غير ما موضع الى هذا الموقف الخاطىء لكفار مكة . قال تعالى فى سورة ص[1] : ﴿ وعجبوا أن جاءهم منذر منهم

(١) آيات ٤ ــ ١٠

وقال الكافرون هذا ساحر كذاب • أجعل الآلهة الها واحدا ، ان هذا لشيء عجاب • وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم ان هذا لشيء يراد • ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة ، ان هذا الا اختلاق • أأنزل عليه الذكر من بيننا بل هم في شك من ذكرى بل لما يذوقوا عذاب • أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب • أم لهم ملك السماوات والأرض وما بينهما فليرتقوا في الأسباب • جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب ﴾ • وجاء في سورة الزخرف[1] قوله تعالى : ﴿ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم • أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون ﴾

والعجيب أن الحكمة التي تجلت في اختيار الرسول واحدا من البشر كي يستطيعوا أن يألفوه ويأخذوا منه ويعطوه ، كانت في نظر كفار مكة سببا في عدم إيمانهم • لأنهم لم يكونوا أهلا للارتفاع الى مستوى فهم هذه الحكمة ، فلو كان الرسول واحدا من الملائكة لما استطاعوا التفاهم معه ، لأن طبيعته في الدرجة الأولى تختلف عن طبيعتهم • ولما كان طلبهم إشراك العنصر الملائكي في الرسالة قائما على عدم القدرة على فهم الحكمة في ذلك ، تعرضت الآية الكريمة التالية لهذا العنصر محاولة تبيين الحكمة ، قال تعالى : ﴿ قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا ﴾ • وهي تبدأ بجملة « قل » التي تدل على دور المصطفى صلى الله عليه وسلم المعروف المحدود بشأن القرآن المجيد • ولما كان المستقر في الأعماق أن الملائكة في السماء ، والى ذلك أشارت الآية الكريمة ذاتها ، ولما كان القصد تعميق حكمة كون الرسول من جنس قومه ، فلو فرض أن هذا الجنس المقترح كان بحاجة الى رسول يخرجه من ظلمات الشرك الى نور التوحيد • لكان ذلك الرسول حتما واحدا من الملائكة ولأنزله الله تعالى من السماء — باعتبار الأصل — إلى الملائكة الذين سكنوا هذه الأرض • وكون الملائكة — افتراضا — قد سكنوا الأرض يعني أنهم تحولوا من مفردي الإرادة وهي الحال التي هم عليها في السماء الى ثنائيي الإرادة يجوز أن يصدر منهم الخير والشر ، وبالتالي هم بحاجة الى الرسول الذي يرشدهم الى الصراط المستقيم • ولو فرض أن كل ذلك قد تحقق لوجب أن

ثنائيي

(1) آية ٣١ ، ٣٢

يكون الرسول من جنس الملائكة . وكل هذه الافتراضات بقصد توضيح الحكمة الالهية لكون الرسول الى البشر واحدا منهم .

وان مجيء القول : ﴿ فى الأرض ﴾ بين يدى الحديث عن الملائكة فى الآية الكريمة دليل قوى على أن الهدف الأساسى الذى يرمى اليه هم سكان هذه الأرض الأساسيون من البشر وأنهم هم المعنيون أولا وأخيرا لأنهم هم السكان الأصليون ، وهم الذين بطبعهم يمشون فى الأرض ويغلب عليهم الاطمئنان أثناء المشى الذى يشكل أكثر أنواع الحركات التى يقوم بها البشر فى الأرض . هذا الى التعاطف الفطرى بين المشى من ناحية وبين الاطمئنان من ناحية أخرى .

وقد كان من الطبيعى أن يتوجّه الحديث الى الملائكة دون سواهم من الخلق لأنهم فى نظر المستكثرين أن يكون الرسول واحدا من البشر ، هم المثل الأعلى للرّسالة . فكأنّ الآية الكريمة تريد أن تقول : إنّه لو فرض أن هذه الأرض التى تألفونها أيها الناس وتمشون فيها مطمئنين قد ألفها آخرون مكلفون يمشون فيها مطمئنين كما تمشون ، لكان رسولنا اليهم واحدا منهم . ولا يخفى أن صفة التكليف التى اتسمت بهـا المخلوقات الأخرى التى رمز اليها بالملائكة لم تجىء الإشـارة اليها صريحة . إنما جاءت ضمنا من ذكر الأرض والمشى فيها باطمئنان وكل ذلك لاصق أساسا بالبشر .

وما الذى ينبغى للمصطفى صلى الله عليه وسلم أن يفعل تجاه هؤلاء المنكرين للبعث المعرضـين كليّة عن القـرآن الكريم المتلهّين بطلباتهم وتحدّياتهم ؟ أيهلك نفسه حَزَناً لانصرافهم . أيسمح لنفسه أن تذهب حسرات لاعراضهم عن الحق ؟ لا هذا ولا ذاك ، لأن الأمر كله أوّلا وأخيرا بيد الله تعالى . وليس عليه صلى الله عليه وسلم إلاّ البلاغ أما نتائج البلاغ من نجاح أو إخفاق فانها ارادة الله تعالى الذى يشهد بأن محمدا صلى الله عليه وسلم رسوله ، والذى يهدى من يشاء ويضل من يشاء . لذا فقد طلب منه عليه الصلاة والسلام أن يخبر كفار مكة بأن الله تعالى هو الشهيد بأنه رسول وكفى بالله شهيدا . قال تعالى : ﴿ قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم ، انه كان بعباده خبيرا بصيرا ﴾ . ولا مانع من القول إن صفة الخبير يمكن أن ترتبط فى الدرجة الأولى بأحوال العباد فى الحال ، وان صفة البصير ، يمكن أن ترتبط فى الدرجة الأولى أيضا بأحوال العباد فى المستقبل .

وبعد الإشارة الى أنه يكفى أن يكون الله تعالى وَحْدَهُ الشّهيد بصدق رسالة المصطفى صلى الله عليه وسلم تَمّ التّحوّل إلى تقرير الحقيقة القائمة من أن الأمور كلها بيد الله تعالى، وأن كل انسان مسئول عما فعل . قال تعالى : ﴿ ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما ، مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا ﴾ .

وها نحن أولاء نعود إلى القول بأن مثل هذه الطريقة فى الكلام : ﴿ ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ﴾ تهدف الى التعبير عن علم الله تعالى المطلق الذى سبق الى الوقوف على صفة الضلال التى سوف يختارها الضالون بمحض إرادتهم بعد أن استبانت لهم كل من طريق الهدى وطريق الضلال .

ولعل أول ما لفت انتباهنا فى هذه الآية الكريمة أنها استعملت ضمير المفرد أثناء حديثها عن الهداية وذلك فى قوله تعالى : « فهو المهتد » وأنها استعملت ضمير الجماعة أثناء حديثها عن الضلال ، وذلك فى قوله تعالى : « فلن تجد لهم أولياء من دونه » وقد أوضح هذه اللطيفة الغالية أبو حيان العظيم يقول[1] : « وحمل على اللفظ فى قوله فهو المهتدى فأفرد ، ملاحظة لسبيل الهدى وهى واحدة . فناسب التّوحيد التّوحيد وحمل على المعنى فى قوله : «فلن تجد لهم أولياء» لا على اللفظ ، ملاحظة لسبيل الضلال فانها متشعبة متعددة . فناسب التشعيب والتعديد الجمع . وهذا من المواضع التى جاء فيها الحمل على المعنى ابتداءً من غير أن يتقدّم الحمل على اللفظ وهى قليلة فى القرآن » .

فاذا وقفنا عند عملية حشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما ، تبين أن عملية الحشر هذه مترتبة على الصيحة التالية التى يحشر الخلائق بعد إطلاقها . وقد جمع بين الصيحتين اللتين يموت الخلائق بأولاهما ويبعثون بثانيهما قوله تعالى فى سورة الزمر[2] : ﴿ ونفخ فى الصور فصعق من فى السماوات ومن فى الأرض الا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون ﴾ . كما جمع بين الصيحات الثلاث هذه الآيات الكريمة من سورة يس[3] : ﴿ ويقولون متى هذا الوعد ان

---

(١) البحر المحيط ٨١/٦
(٢) آية ٦٨
(٣) آيات ٤٨ ــ ٥٤

كنتم صادقين • ما ينظرون الا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون • فلا يستطيعون توصية ولا الى أهلهم يرجعون • ونفخ فى الصور فاذا هم من الأجداث الى ربهم ينسلون • قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا ، هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون • ان كانت الا صيحة واحدة فاذا هم جميع لدينا محضرون • فاليوم لا تظلم نفس شيئا ولا تجزون الا ما كنتم تعلمون ﴾ •

وهؤلاء الذين اختاروا طرق الضلال خذلهم يوم القيامة ما كانوا يدعون من دون الله تعالى ، وحُشِروا إلى جهنم فى أبشع حال • فهم بدلا من أن يمشوا على أرجلهم على نحو ما كانوا يفعلون فى الحياة الدنيا هم يسحبون على وجوههم عميا وبكما وصما • ولماذا حشروا فى تلك الصورة البشعة ؟ لأنهم فى الحياة الدنيا لم يستفيدوا من نِعم الله تعالى عليهم والتى تتمثل مثلا فى العين وجارحة النطق والأذن • إنّ العين يبصر بها ، ولكنهم عطلوا أعينهم عن العمل فلم تبصر النور الذى يرمز به لنور الهداية الذى جاء به المصطفى صلى الله عليه وسلم فاستحقوا بناءً على ذلك أن يحشروا يوم القيامة عميا • والشىء ذاته يقال عن حشرهم بكما وصما • لأنهم عطلوا عمل كل من جارحة النطق والأذن ، فاستحقوا أن يحشروا بكما وصما •

ولماذا جاء القول : ﴿ عميا وبكما وصما ﴾ وفق هذا النسق بالذات ؟ لأن جريمتهم فى حق أنفسهم عظيمة فاستحقوا يوم القيامة أن يكون الانتقام منهم كبيرا ، وقد تمثل ابتداءً فى سلبهم أغلى الحواس قيمة وهى العين ، فبرزت القيمة الكبرى للجارحة التى خلفت العين ، وهى جارحة النطق ، فسلبوا هذه الجارحة أيضا ، فبرزت أخيرا القيمة الكبرى لحاسّة السمع التى خلفت جارحة النطق ، فسلبوا هذه الحاسّة أيضا • فكأنّ هذا النسق فى الآية الكريمة « عميا وبكما وصما » يراعى الحاسّة الأهم فالأقل أهمية ، كما أنه يختار الحواس التى يمكن أن تسعف فى ذلك اليوم المشهود فيعطّلها عن العمل تماما ، ويهمل بالكلية ما لا يسعف من الحواس •

ما أروع هذه الدقة فى ترتيب سلب الصفات وفق هذا النسق الذى يراعى أهميتها بالنسبة للقوم يوم القيامة « عميا وبكما وصما » وما أروع

قلب هذا الترتيب رأسا على عقب فى مثل قوله تعالى فى سورة البقرة[1] : ﴿ صم بكم عمى فهم لا يرجعون ﴾ الذى يراعى هذه المرة حال القوم فى الحياة الدنيا فيتدرج فى ترتيب الصفات من الأشد بساطة الى البسيط مراعيا نفور القوم عن سماع القرآن الكريم وتعاليم الدين الحنيف فضلا عن التفوّه بالحق أو الاهتداء بنوره .

جاء فى حديث أنه قيل يا رسول الله : كيف يمشى الكافر على وجهه ؟ قال : أليس الذى أمشاه فى الدنيا على رجلين قادرا على أن يمشيه فى الآخرة على وجهه ؟ قال قتادة : بلى وعزة ربنا[2] وقال ابن عباس فى تفسير قوله تعالى : « كلما خبت زدناهم سعيرا » كلما فرغت من إحراقهم فيسكن اللهيب القائم عليهم قدر ما يعادون ، ثم يثور ، فتلك زيادة السعير . فالزيادة فى حيزهم . وأما جهنم فعلى حالها من الشدة ، لا يصيبها فتور . فعلى هذا يكون خبت مجازا عن سكون لهبها مقدار ما تكون إعادتهم كأنهم لما كذبوا بالإعادة بعد الإفناء جعل الله جزاءهم أن سلط النار على أجزائهم تأكلها وتفنيها ثم يعيدها . لا يزالون على الإفناء والإعادة ليزيد ذلك فى تحسيرهم على تكذيبهم ولأنه أدخل فى الانتقام من الجاحد[3] » .

ولماذا كان ذلك جزاء القوم ؟ قال تعالى : ﴿ ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا . أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم وجعل لهم أجلا لا ريب فيه فأبى الظالمون الا كفورا . قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى اذن لأمسكتم خشية الانفاق وكان الانسان قتورا ﴾ .

الحقيقة أن عدم استساغة كفار مكة لعودة الحياة مرة ثانية للأجسام التى أصابها البلى ، دليل على نظرتهم القاصرة وعدم أهليتهم لتصور المسائل تصورا كليا وكاملا . لذا نتبين أنهم يتناقضون مع أنفسهم حينما يقبلون بعض جوانب الشىء الواحد ويرفضون البعض الآخر من الجوانب . فلو سألنا هؤلاء المنكرين للبعث : من الذى أوجد هذه المخلوقات من العدم ؟ فان جوابهم سيكون : الله تعالى هو خالق المخلوقات

---

(١) البقرة ، ١٨ .
(٢) البحر المحيط ، ٨٢/٦ .
(٣) البحر المحيط ، ٨٣/٦ .

من العدم . ولا يستطيع هؤلاء أن يفهموا أنه يرتبط بهذا السؤال الذى أحسنوا الإجابة عليه سؤال آخر منطقى هو : أيهما أصعب : إيجاد المخلوقات ابتداءً أم اعادة الحياة إليها مرة أخرى ؟ والجواب معروف بطبيعة الحال وهو أن إيجاد المخلوقات أصعب من إعادة الحياة إليها . وهل البعث غير الإعادة ؟ وإنّ الشىء ذاته يقال بشأن السماوات والأرض ومع ذلك هم يستبعدون إعادتها يوم القيامة فى الصورة التى أشار اليها قوله تعالى[1] : ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات ﴾ .

وحيث إنّ رسول الله تعالى مبعوث الى الناس كافّة ، فهلا انتفع كفار مكة من هذه النعمة ، وهلا سأل هؤلاء المحكمو الأهواء أنفسهم عمّا كانوا سيفعلون فيما لو كان عندهم خير ، أكانوا سيجودون به على غرار ما يجود به المصطفى صلى الله عليه وسلم ويسخو فى سبيل نشر دعوة الخير دعوة الاسلام أم أنهم سيبخلون ؟ هذا هو الجواب بنص القرآن الكريم ، قال تعالى : ﴿ قل لو انتم تملكون خزائن رحمة ربى اذن لأمسكتم خشية الانفاق وكان الانسان قتورا ﴾ .

ومعنى خشية الإنفاق أى خشية الفناء والنفاد . يقال : أنفق الرجل اذا افتقر[2] وهذا هو المشهور عند المفسرين . وبتأملنا للفظة الإنفاق ولجملة أنفق من زاوية أخرى يتبين أنها تستعمل للدلالة على مجرد التصرف فى المال ، الأقرب للأعتدال ونهج الطريق الوسط . فاذا كانت جملة أنفق تدل من قبل على الأفتقار على نحو ما مر بنا ، فانها تدل الآن على صرف المال . يقال أنفق المال بمعنى صرفه . وفى التنزيل[3] : ﴿ واذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله ﴾ أى أنفقوا فى سبيل الله وأطعموا وتصدّقوا[4] وفى ضوء هذا المعنى أن كفار مكة ، فيما لو فرض أنهم يملكون خزائن رحمة الله تعالى ، فانهم إمعانا فى البخل والشح يمسكون ابتداءً عن مجرد التصرف فى أموالهم والإنفاق . انهم يخشون الانفاق ذاته فضلا عن الفقر ، وبالتالى هم لا يعطون الناس نقيرا . وهذا التعبير البليغ عن تأصّل البخل فى هؤلاء الكافرين ، خير مهيىء للجزئية التعقيبية التى تنصّ على أن البخل سجيّة فى جنس الإنسان . قال تعالى :

---

(١) ابراهيم ، ٤٨ .
(٢) اللسان والقاموس « نفق » .
(٣) يس ، ٤٧ .
(٤) اللسان « نفق » .

﴿ وكان الانسان قتورا ﴾ ولكن أي إنسان هذا القتور الذى اذا مسه الشر كان جزوعا واذا مسه الخير كان منوعا . إنه الإنسان الذى لم يخرج من ظلمات الشرك الى نور التوحيد ، إنه الإنسان غير المعتنق للدين الذى ارتضى رب العزة لعباده غير المطبق لتعاليمه . أما الإنسان المسلم لله رب العالمين ، فان الصلاة التى يؤديها خمس مرات فى اليوم والليلة ، عدا النوافل ، قادرة على صياغة هذا الانسان صياغة يصح أن يقال عنها إنها جديدة ، إذ إن قوامها حب الخير فى كل صوره وفى مقدمتها ايتاء الزكاة والصدقات . وقد أشارت ، على سبيل المثال ، الآية الأخيرة من سورة المزمل الى ذلك . قال تعالى : ﴿ فاقرأوا ما تيسر منه وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا . وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله ان الله غفور رحيم ﴾ .

ومن أكبر الأدلة على أن هذه الجزئية التعقيبية ﴿ وكان الانسان قتورا ﴾ تعنى بالدرجة الأولى غير عباد الله تعالى الصالحين ، إنها تجىء بعد الحديث الذى يوجه مباشرة الى كفار مكة على لسان المصطفى صلى الله عليه وسلم .

( ١٨ )

# موسى عليه السلام وآياته التسع

سبب انصراف كفار مكة للرسول صلى الله عليه وسلم الكثير من الحزن ، وكان من أهداف هذه السورة الكريمة تسليته صلى الله عليه وسلم • وقد تجلى ذلك من قبل فى إخباره عليه الصلاة والسلام بأنما عليه البلاغ فقط • وهذا مظهر آخر من مظاهر التسلية والتسرية عنه • قال تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بنى اسرائيل اذ جاءهم فقال له فرعون انى لأظنك يا موسى مسحورا • قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء الا رب السماوات والأرض بصائر وانى لأظنك يا فرعون مثبورا • فأراد أن يستفزهم من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعا • وقلنا من بعده لبنى اسرائيل اسكنوا الأرض فاذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا ﴾ •

وسبق أن بيّنا أوجه الشبه بين المكيين وقوم موسى عليه السلام أثناء محاولتنا توضيح جوانب الحكمة فى انتقال السورة الكريمة من الحديث عن الإسراء إلى موسى عليه السلام • وإنّ النّصّ على كون آيات موسى عليه السلام تسعا تبرير تفصيلى لعدم ارسال الله تعالى للآيات • فقد كذّب بها الأولون • والآيات التسع التى آتاها الله تعالى موسى عليه السلام هى : اليد البيضاء والعصا والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم • وهذه سبع باتّفاق • وأما الثنتان الأخيرتان فقد قيل إنها لسانه عليه الصلاة والسلام الذى كان به عقد فحلها الله والبحر الذى فلق له • وقيل البحر والجبل الذى نتق عليهم • وقيل غير ذلك[1] •

ووُصفت الآيات بأنها بينات ، لأنها فى ذاتها آيات بينات على صدق رسالة موسى عليه السلام ولأن القوم كانوا واثقين من صدق دلالتها ، تماما كما كان المكيون واثقين من صدق دلالة القرآن الكريم • ولكنّه

---

(١) انظر البحر المحيط ٦/٥ ٨ .

الكبر والعلو • والى قوم موسى عليه السلام أشار مثلا قوله تعالى فى سورة النمل[1] : ﴿ يا موسى انه أنا الله العزيز الحكيم • وألق عصاك ، فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب • يا موسى لا تخف انى لا يخاف لدى المرسلون • الا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فانى غفور رحيم • وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء فى تسع آيات الى فرعون وقومه ، انهم كانوا قوما فاسقين • فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين • وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ •

وفى سبيل تطمينه عليه الصلاة والسلام بصورة أكبر ، تطلب الآية الكريمة أن تسأل ذرية بنى إسرائيل عن الموقف الذى وقفه من موسى عليه السلاة قومه • انهم سيجيبونك معتمدين على ما إنتهى اليهم من وثائق ومعلومات بمثل ما أفادك القرآن • وفى هذا تسلية كبرى لك أيها الرسول الكريم - قال تعالى :﴿ فاسأل بنى اسرائيل اذ جاءهم ﴾ • أما فرعون فقد لجأ الى التكذيب وحذا حذوه أكثر قومه ، قال تعالى : ﴿ فقال له فرعون انى لأظنك يا موسى مسحورا ﴾ والمعنى أنك يا موسى يبدو عليك باتيانك هذه الخوارق أنك رجل مسحور ومغلوب على أمرك ، تسيطر على قواك العقلية والنفسية قوى خفية • ويلاحظ أن هذه الصفة هى التى أطلقها كفار مكة على النبى الكريم ، قال تعالى :﴿ اذ يقول الظالمون ان تتبعون الا رجلا مسحورا ﴾ • وهل كان فرعون يعتقد صحة اتهامه لموسى عليه السلام بأنه مسحور فعلا • لا ، بل كان مستيقنا فى أعماقه بأن موسى عليه السلام رسول رب العالمين ، وأن هذه الآيات لا تجرى على يديه الا بارادة الله تعالى •

ومن باب مراعاة النظير جاء على لسان موسى عليه السلام قوله تعالى : ﴿ وانى لأظنك يا فرعون مثبورا ﴾ أى هالكا • وفرق كبير بين الظنين ، ان فرعون يقول ما يعتقد عكسه بينما موسى عليه السلام يقول ما يعتقد صحته • فمصير فرعون الهلاك إذا لم يصحح موقفه وهو ما حدث فعلا •

واذا كان كفّار مكة قد أرادوا استفزازه صلى الله عليه وسلم بقصد اخراجه من أرض مكة وأنه عز وجل لم يمكنهم من ذلك لأنه لم يرد

---

(١) آيات ، ٩ــ ١٤ •

إهلاكهم ، إنما أذن له عز وجل فى الهجرة ، فإن إرادة الله تعالى ، التى شاءت إهلاك فرعون ومن معه جميعا مكنتهم من إخراج موسى وقومه المؤمنين من أرض مصر واستفزازهم ، فأغرق الله تعالى فرعون ومن معه جميعا : ﴿ سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا ﴾ . وفى ذكر مصير فرعون وجنوده مظهر من مظاهر تسليته عليه الصلاة والسلام ، لأن موقف المناوئين للرسولين الكريمين واحد .

وبما أن فى كل من قومى الرسولين الكريمين فئة مؤمنة ، بحاجة الى أن يكون لهـا شىء من نصيب فى القصة يربط به على أفئدة الفئة المؤمنة من أتباع المصطفى صلى الله عليه وسلم حيث قد نصر الله تعالى الفئة القليلة المؤمنة من قوم موسى عليه السلام تحقيقا لوعده بنصر رسله والذين آمنوا . فقد كانت هذه الآية الكريمة من نصيب الفئة المؤمنة ، قال تعالى : ﴿ وقلنا من بعده لبنى اسرائيل اسكنوا الأرض فاذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا ﴾ . والمراد بالآخرة هنا يوم القيامة ، ولعلنا لاحظنا أن هذا القول : « فاذا جاء وعد الآخرة » هو الذى سبق أن جاء بشأن إفساد بنى اسرائيل وانتقام الله تعالى منهم جزاء افسادهم فى الأرض للمرة الثانية أو الآخرة .

( ١٩ )

# عودة للقرآن الكريم ومتعلقاته

الآيات (١٠٥-١١١)

وبما أنّ الخوارق أو المعجزات ـ ما عدا القرآن الكريم ـ لها دورها المحدود فى الإسلام ، بينما هى بشأن موسى عليه السلام ، وسيلة إقناع قومه عليه السلام بأنه رسول رب العالمين ، فقد كان من الطبيعى بعد ذكر قصة بنى اسرائيل أن تكون العناية كبيرة جدا بمعجزة الإسلام الخالدة التى تهدى للتى هى أقوم أعنى القرآن الكريم الذى يفوز منفذ تعاليمه وتعاليم السنة النبوية المطهرة بخيرى الدنيا والآخرة ، وبالصلاة التى تعتبر تلاوة القرآن الكريم أحد أركانها بل إنه عبّر عن صلاة الفجر بقرآن الفجر • وهذه هى الآيات المتعلقة بالقرآن الكريم • قال تعالى : ﴿ وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ، وما أرسلناك الا مبشرا ونذيرا • وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا • قل آمنوا به أو لا تؤمنوا • ان الذين أوتوا العلم من قبله اذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا ويقولون سبحان ربنا ان كان وعد ربنا لمفعولا • ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا ﴾ •

ونود أول الأمر أن نمر سريعا على مظاهر تسلية المصطفى صلى الله عليه وسلم فى هذه الآيات • إنّ عجز الآية الكريمة الأولى : ﴿ وما أرسلناك الا مبشرا ونذيرا ﴾ كأنه يطلب منه صلى الله عليه وسلم ألا يحزن أكثر من الضرورى لعدم تصديق قومه له فإنّما عليه البلاغ فقط وعلى الله تعالى الحساب • إنه مبشر للمؤمنين ومنذر للكافرين • وإنّ نزول القرآن الكريم بكل حق وصـــدق ، ونزوله مفرّقا وفق الحوادث ومقتضيات الأحوال ، يعنى هذا وذاك أنّ الاطمئنان ملازم للمصطفى صلى الله عليه وسلم بسبب جمع الله تعالى القرآن الكريم فى صدره صلى الله عليه وسلم وإقرائه اياه ، وأن التسلية متجدّدة بتجدّد نزول القرآن الكريم • أما الجمع والإقراء فقد أشار الى ذلك قوله تعالى فى سورة

القيامة[1] : ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به . ان علينا جمعه وقرآنه . فاذا قرأناه فاتبع قرآنه . ثم ان علينا بيانه ﴾ وأما التسلية أو تثبيت الفؤاد فقد أشار إلى ذلك قوله تعالى فى سورة الفرقان[2] : ﴿ وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا ﴾ ونستطيع أن نفهم هذين المعنيين على التوالى فى صدر الآية من سورة الإسراء : ﴿ وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ﴾ . وفى الآية الثانية ﴿ وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا ﴾ .

فاذا تحولنا الى الآيات الثلاث الباقية ، تبين أنها تضرب عن الكافرين الذكر صفحا . إذ لا قيمة لهم ولا فائدة ترجى منهم . ﴿ قل آمنوا به أولا تؤمنوا ﴾ وهذا منتهى التهديد لهم ، إذ معناه أن مصيرهم إلى النار وبئس القرار . وتستمر الآية الكريمة بعد ذلك ثم الآيتان التاليتان فى تبيين أن الأفضل من هؤلاء الكافرين مؤمنو أهل الكتاب — ويراد بهم هنا فى الدرجة الأولى بنو إسرائيل الذين كان يسكن بعضهم آنذاك يثرب ومن مؤمنيهم عبد الله بن سلام — فقد فهموا الكتب السماوية السابقة ووقفوا على صفة المصطفى صلى الله عليه وسلم فيها وتبينوا تلك الصفات فيه عليه الصلاة والسلام فصدقوه واتبعوا النور الذى أنزل معه . إن هؤلاء المؤمنين حينما تتلى عليهم آيات القرآن الكريم يخرون للأذقان سجدا فى مواضع السجود من القرآن . ويخرون يبكون من الخشوع وتزيدهم تلاوة القرآن وسماعه خشوعا . إن سؤال بنى إسرائيل من قبل إذ جاءهم موسى عليه السلام من مظاهر تسليته عليه الصلاة والسلام ، وان تعاطف مؤمنى أهل الكتاب وفيهم مؤمنو بنى إسرائيل مع القرآن الكريم من مظاهر التسلية أيضا .

وهذه النظرة السريعة للآيات بحاجة الى أخرى أكثر اتساعا وشمولا فمع الآية الأولى ، قال تعالى : ﴿ وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ، وما أرسلناك الا مبشرا ونذيرا ﴾ وهى تنقسم قسمين يتحدث أولهما عن القرآن الكريم ويبين ثانيهما طبيعة دور رسول الله تعالى الى الناس . فما معنى القسم الأول : « وبالحق أنزلناه وبالحق نزل » لا يخفى أن

---

(١) آيات ، ١٦ — ١٩ .
(٢) الفرقان ، ٣٢ .

لفظة الحق جاءت فى هذا القسم مرتين • فى المرة الأولى جاءت مع الفعل المتعدى أنزل • وفى المرة الثـانية مع الفعل اللازم نزل • ونستطيع بشأن المرة الأولى أن نفهم أن الحق هو الهدف من إنزال القرآن الكريم فهناك سبب عظيم وغاية نبيلة كان إنزال القرآن الكريم بقصد تحقيقهما • وقد عبّر عن ذلك بالحق الذى يشمل كل خير للإنسانية حيث يهديها القرآن الكريم للطريقة التى هى أقوم • ومن هنا تمثل القرآن الكريم فى هيئة ذلك القول الفصل ، الثقيل الوزن على حد تعبير القرآن الكريم ذاته ، والذى ليس بالهزل • ومن ثم هو بحاجة الى أن يؤخذ مأخذ الجدّ الذى يتكافأ مع ما يشتمل عليه من حروف القول النافعة الجليلة ، والتى ينزل كل نوع منها منزلة المثل لحسنه واشباعه للنفوس وارضائه للعقول •

واذا كان الحق بالمعنى الذى أوضحنا ، هو الهدف الذى من أجله أنزل الله تعالى القرآن ، فان هذا القرآن قد حقق بنزوله ذلك الهدف الذى من أجله أنزل • فكم فتح الله تعالى به أعينا عميا وآذانا صما وهدى به قلوبا غلفا • وكيف لا يحقق القرآن الكريم الحق بنزوله ، وكيف لا يكون مطاوعا لإرادة الله تعالى التى أنزلته وأرادت له أن ينزل بالحق • قال تعالى : ﴿ وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ﴾ •

فاذا تحولنا الى القسم الثانى فى الآية الكريمة : ﴿ وما أرسلناك الا مبشرا ونذيرا ﴾ تبينا أنه يبين طبيعة العمل الذى ينبغى أن يقوم به رسول الله تعالى والذى لا يستطيع أن يتجاوزه • فبعد الابتداء فى تبليغ الرسالة يأخذ القوم فى الانقسام فريقين رئيسيين : المؤمنين والكافرين • ومن نصيب المؤمنين البشارة بأن لهم فى جنات النعيم غرفا من فوقها غرف مبنية تجرى من تحتها الأنهار • ومن نصيب الكافرين الانذار بأن عاقبتهم لو استمروا فى طريقهم الخاطىء ستكون وخيمة • انها ظلل من النار من فوقها ظلل فى جهنم التى وقودها الناس والحجارة ، والتى عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون • وحينما يكون دور الرسـول مقتصرا على كونه بشيرا ونذيرا ، فكأن الآية تقول له فى عبارة أخرى إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب • وفى هذا كبير تسلية له عليه الصلاة والسلام • إن القسم الأول من الآية طمأنينة له عليه الصلاة والسلام والقسم الثانى تسلية • وما أعظم كلا من الطمأنينة والتسلية اللتين تعمران نفس المصطفى صلى

الله عليه وسلم وقلبه ، فقد كان ، وبخاصة قبل الهجرة ، فى حاجة كبرى لهمـــا .

فاذا تحولنا الى الآية التالية ، قال تعالى : ﴿ وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا ﴾ تبين أنها تكون على غرار الآية السابقة من ثلاثة أقسام . ولا يخفى أن بين القسمين الأولين فى الآيتين تناسقا معنويا وصوتيا . ففى الآية الأولى : ﴿ وبالحق أنزلناه ﴾ وفى الثانية : ﴿ وقرآنا فرقناه ﴾ فما معنى القول : ﴿ وقرآنا فرقناه ﴾ ؟ المعنى وقرآنا بيّنا حلاله وحرامه وفرقنا به بين الحق والباطل فاقتضى أن ينزل مفرقا حسب الوقائع ومقتضيات الأحوال . ليسهل على الناس تطبيق تعاليمه وأحكامه ، وليتسنى لهم أن يتدبروه ويفهموا معانيه حينما يقرأ المصطفى صلى الله عليه وسلم ما نزل منه على ترسّل فى القراءة ، وترتيل . كما اقتضى هذا القرآن العظيم أن ينزّل تنزيلا يليق بمقامه ، فقد نزل فى أسمى طرق الوحي ، عن طريق الروح الأمين جبريل عليه السلام على قلبه صلى الله عليه وسلم بلسان عربى مبين . ونستطيع بهذه المناسبة أن نستذكر هذه الآية الكريمة من سورة القمر[1] ، قال تعالى : ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ .

ومن الواضح أنّ نزول القرآن الكريم مفرّقا يعنى تثبيت فؤاده صلى الله عليه وسلم وأنّ قراءته صلى الله عليه وسلم للقرآن الكريم على الناس ومع نفسه يعنى أنّ الاطمئنان ملازم له . فكأنّ الآية الكريمة تهدف فيما تهدف الى تسليته صلى الله عليه وسلم وكذلك الآيات الثلاث التالية . قال تعالى : ﴿ قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله اذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا ويقولون سبحان ربنا ان كان وعد ربنا لمفعولا . ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا ﴾ .

أما القسم الأول من الآية الأولى : ﴿ قل آمنوا به أو لا تؤمنوا ﴾ فانه خاصّ بكفار مكة الميئوس من صلاحهم . وهنا يؤمر عليه الصلاة والسلام أن يقول لهم فى لهجة كلها تهديد ، إنه سواء بشأنهم أن يؤمنوا بالقرآن الكريم أو لا يؤمنوا إذ لا فائدة ترجى منهم مطلقا بعد كل ذلك التصرف للقول فى القرآن الكريم . ولا خير ينتظر منهم ولا قيمة

---

(1) آية ، ١٧ .

لهم ولا وزن فقد أشربت قلوبهم حب الكفر • ولا يخفى أن مثل هذا القول انما يوجه للميئوس كلية من صلاحهم • وثمة رأى وجيه يقول[1] : « قل آمنوا » • الآية تحقير للكفار • وفى ضمنه ضرب من التوعد • والمعنى أنكم لستم بحجة ، فسواء علينا آمنتم أم كفرتم ، وانما ضرر ذلك على أنفسكم • وانما الحجة أهل العلم » • فمن هم أهل العلم ؟ لا يخفى أن الآية الكريمة تضيف القول من قبله ، أى من قبل نزول القرآن • وهذا يعنى أن أهل العلم هنا هم أهل الكتاب الذين وصلتهم عن طريق الكتب السماوية معلومات صحيحة عن بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين ونزول القرآن الكريم عليه • وحينما تبين هؤلاء من أمثال عبد الله بن سلام ، بمطابقة ما فى الكتب السماوية لأوصاف النبى العربى الهاشمى القرشى ، لم يترددوا فى تصديقه والإيمان بما نزل عليه من ربه ، بل والفرح بما ينزل من القرآن عليه صلى الله عليه وسلم • وإلى ذلك أشار قوله تعالى من سورة الرعد[2] : ﴿ والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل اليك ﴾ •

فاذا تلى القرآن الكريم على هؤلاء ووافقت التلاوة موضع سجود ، فانهم يخرون للأذقان سجدا • أى يسقطون بسرعة ساجدين لله رب العالمين مسبحين خاشعين باكين • قال تعالى : ﴿ ان الذين أوتوا العلم من قبله اذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا ويقولون سبحان ربنا ان كان وعد ربنا لمفعولا • ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا ﴾ • وتأمل هذا الاستعمال اللطيف الدقيق للفظة الأذقان : ﴿ يخرون للأذقان سجدا ﴾ إنه من باب إطلاق الجزء على الكل ، فالذقن جزء من الوجه أو الرأس • وحيث إنهما جزء من الجسم ، لذا يصح أن يقال إن استعمال لفظة الأذقان من باب إطلاق الجزء على الكل • وانما وقع الاختيار على الأذقان ، مع أن السجود الفعلى يكون على الجبين والأنف ، لأن الذقن ، أثناء عملية السقوط للسجود يكون أقرب أجزاء الوجه من الأرض • ولذلك دخلت على الأذقان لام الاختصاص •

وما معنى القول : ﴿ سبحان ربنا ﴾ ؟ معناه تنزه ربنا عز وجل عن كل مالا يليق بجلاله وعظمته ، ومن ذلك إنكار كفار مكة للبعث وإنكارهم

---

(١) البحر المحيط ٦/٨٨ •
(٢) آية ، ٣٦ •

أن يرسل الله تعالى رسله الى البشر منهم • ويعتبر هذا القول : ﴿ ان كان وعد ربنا لمفعولا ﴾ تبيينا لمـا قبله وتوضيحا • لقد وعد الله تعالى بإرسال خاتم الأنبياء والمرسلين واحدا من البشر • وها هو ذا وعد الله تعالى يتحقق • وقد وعد بانزال القرآن الكريم آخر الكتب السماوية على هذا النبى الكريم • وها هو ذا القرآن الكريم ينزل منجما حسب الوقائع ومقتضيات الأحوال ويقاس الذى لمـا يقع على ما قد وقع فعلا • فليس البعث الذى أنكره كفار مكة الا إعادة للحياة التى وجدت من قبـل •

وكلما استمرت تلاوة الذين أوتوا العلم للقرآن الكريم ، ارتفعت نسبة خشوعهم • وتظل هذه النسبة فى ارتفاع مدة استمرار تلاوة القرآن وإصغائهم له حتى ينفجروا باكين • قال تعالى : ﴿ قل آمنوا به أو لا تؤمنوا • ان الذين أوتوا العلم من قبله اذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا ويقولون سبحان ربنا ان كان وعد ربنا لمفعولا • ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا ﴾ •

ما أشد البون بين كفار مكة الذين رفضوا القرآن الكريم جملة وتفضيلا وبين هذه الفئة من أهل العلم من أهل الكتاب • وينبغى أن يكون البون أشد حينما يكون المرتلون للقرآن الكريم أو السامعون له من أتباع المصطفى صلى الله عليه وسلم • وعموما فان لين القلوب لسماع القرآن الكريم من سمات المؤمنين • قال عز من قائل[1] : ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾ وينبغى أن تكون صفة الخشوع لتلاوة القرآن الكريم — أو سماعه — فالبكاء من فرط التأثر والخشوع من سمات عباد الرحمن الذين أنعم الله تعالى عليهم بحلاوة الإيمان • وقد جاء فى سورة مريم[2] قوله تعالى : ﴿ أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية ابراهيم واسرائيل وممن هدينا واجتبينا اذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا ﴾ •

---

(١)

(١) الزمر ، ٢٣ .

(٢) ، ٥٨ .

ويلاحظ أن الحركة الملازمة غالبا لفرط الخشوع فالبكاء هى السجود لله رب العالمين • لأن السجود أكبر مظاهر التعبير عن الخضوع والاستسلام لله رب العالمين • ولأن العبد أقرب ما يكون الى الله تعالى وهو ساجد • ويكون ذلك سجود شكر لله تعالى أو لموافقته موضع السجود فى القرآن الكريم أثناء ترتيل القرآن الكريم ترتيلا أو أثناء ترتيله فى الصلاة • وكون العبد أقرب ما يكون الى الله تعالى وهو ساجد يفسّر لماذا جعلت قرة عين المصطفى صلى الله عليه وسلم فى الصلاة • وقد كان يصلىّ لله تعالى حتى تتورّم قدماه • .

وقد عبّر عن حالة السجود الأولى باستعمال الاسم المنكر سجداً • قال تعالى : ﴿ ان الذين أوتوا العلم من قبله اذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا ويقولون سبحان ربنا ان[1] كان وعد ربنا لمفعولا ﴾ وعبّر عن الحالة الثانية باستعمال الجملة الفعلية يبكون • قال تعالى : ﴿ ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا ﴾ ولأبى حيان فى البحر المحيط[2] ملاحظة طريفة على الاختلاف بين التعبيرين فى المناسبتين يقول : « وتكرّر الخرور لاختلاف حالى السجود والبكاء • وجاء التعبير عن الحالة الأولى بالاسم وعن الحالة الثانية بالفعل • لأن الفعل مشعر بالتّجدّد • وذلك أنّ البكاء ناشىء عن التفكّر فهم دائما فى فكرة وتذكّر • فناسب ذكر الفعل اذ هو مشعر بالتجدد • ولمّا كانت حالة السجود ليست تتجدّد فى كل وقت ، عبر فيها بالاسم » •

من الأمور التى أوّلها كفار مكة وفق أهوائهم ووجّهوها الوجهة غير الصحيحة ما سمعوه من النبى صلى الله عليه وسلم وهو يدعو ربه فى صلاته قائلا يا ألله يا رحمن • فقال المشركون : كان محمد يدعو إلها واحدا وهو يدعو إلهين ، فنزلت هذه الآية الكريمة : ﴿ قل ادعو الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعو فله الأسماء الحسنى ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا ﴾ •

إن المصطفى صلى الله عليه وسلم يؤمر بأن يردّ على المشركين المؤوّلين بأنه عز وجل يأمر بأن يدعى بأسمائه الحسنى بأن يقال يا ألله أو يا رحمن الى آخر أسماء الله تعالى الحسنى • على أن القسْمَ الثانى

(1) ان هنا المخففة من الثقيلة •
(2) ٨٩/٦ •

من الآية الكريمة وثيق الصلة بمناسبة معينة حدثت قبل الهجرة . فقد جاء فى صحيح البخارى[1] عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال : نزلت ورسول الله صلى الله عليه وسلم مختف بمكة . وكان اذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن . فاذا سمع المشركون سبّوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به . فقال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : «ولا تجهر بصلاتك » أى بقراءتك فيسمع المشركون فيسبّوا القرآن . « ولا تخافت بها » عن أصحابك فلا تسمعهم «وابتغ بين ذلك سبيلا» .

وبالإضافة الى كون القسم الثانى من الآية الكريمة مرتبطا بمناسبة بعينها ، فقد فُهم منه وراء ذلك أنه عامّ وهذا هو الصحيح . فقد كان أبو بكر رضى الله تعالى عنه يُسِرّ قراءته وعمر رضى الله تعالى عنه يجهر بها . فقيل لهما فى ذلك فقال أبو بكر : انما أناجى ربى وهو يعلم حاجتى . وقال عمر : أنا أطرد الشيطان وأوقظ الوسنان . فلما نزلت قيل لأبى بكر : ارفع أنت قليلا . وقيل لعمر : اخفض أنت قليلا[2] .

وهذه هى الآية الأخيرة فى السورة الكريمة ، قال تعالى : ﴿ وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيرا ﴾ . السورة الكريمة تختم بما بدئت به من تنزيه لله تعالى . فقد جاء فى أول السورة قوله تعالى : ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير ﴾ . وفرق بين طريقتى الآيتين الكريمتين فى التنزيه أن الآية الأخيرة تميل الى التفصيل . وهو تفصيل يخضع لنظام دقيق وتدرج لطيف يبدأ بنفى الأقرب احتمالا فالقريب فالبعيد .

إننا لو تعاملنا مع البَشَر الذين هم بحاجة لأن يتعاون بعضهم مع البعض الآخر ، وتمثلنا مظاهر التعاون حسب أهميتها وأولويتها ، لتبيّنا أن السعى للحصول على الذرية أول ما يتبادر الى ذهن كل واحد ويستحوذ على اهتمامه . لماذا ؟ لأنّ المتبادر إلى كل ذهن أنّ الأبناء فى العادة لا يألون جهدا فى سبيل تقديم العون لوالديهم . وقد يصل الأمر

---

(١) ١٠٩/٦ .
(٢) انظر البحر المحيط ، ٩٠/٦ .

الى إتقان الابن لعمل أبيه أو حرفته مع أن المسألة أول الأمر بدأت فى صورة معاونة الابن لأبيه لا أكثر . وقد جرت العـادة بأنه حينما يكون ثمة أبناء يعينون الأب فى عمله ألا يفكر ذلك الأب فى معين خارجى أو شريك . أما اذا لم يكن ثمة الأبناء ، وكان عمل الأب يحتاج بطبعه الى أكثر من شخص مؤتمن على العمل ، فان الحل يتمثل هذه المرة فى البحث عن الشريك الذى سيكون له حظه من الغنم أو الغرم .

فاذا كان الأمر غاية فى الأهمية والخطورة ، وكان بحاجة الى تعاون جماعى ، وأحس أولو الأمر أن قوتهم أقل مما ينبغى فهم بحاجة إلى عون خارجى كبير كى يطمئنوا الى وجودهم وبقاء مصالحهم ، فإن الحل يتمثل هذه المرة فى البحث عن ولى قوى أو حليف ينضم اليه أولئك الذين يحسون بحاجة الى أن يكملوا ما ينقصهم من قوة . وأقرب مثل يحضرنا بهذه المناسبة تلك الأحلاف التى كان يعقدها قبل الإسـلام أولئك الذين يحسون أنهم بحاجة الى مزيد قوة ، أو الذين يحسون بأنهم فى حاجة الى حماية قبيلة كبيرة . واللطيف فى الأمر أن قبول أية قبيلة لمبدأ التحالف معناه أنها تحس فى أعماقها بحاجة ماسة الى مزيد قوة أو الى حماية خارجية . والدليل على ذلك أن القبيـلة القوية كانت ترفض إباء وشمم مبدأ التحالف من أساسه . وقد أطلق على كل من هذه القبائل لقب جمرة والجمع جمرات . فكأن هذه القبيلة الغاية فى القوة بمثابة الجمرة التى تتأجج نارها ويتطاير شررها . فاذا قبلت هذه القبيلة مبدأ التحالف قيل إن هذه الجمرة قد انطفأت . وبهـذه المناسـبة يحسن أن نشير الى أنه كان فى الجاهلية ثلاث جمـرات متميزة[1] .

وهكذا نلاحظ أن ثمة ثلاث درجات . قريبة وبعيدة وأبعد . يسير الناس فى الواحدة تلو الأخرى على التوالى بحثا عن العون والتأييد وهى السعى للحصول على الولد فالشريك فالولى أو الحليف . وان هذه المعانى التى يعرفها الناس جيدا ، هى التى تنفيها على التوالى الآية الكريمة عن الذات العلية ، قال تعالى : ﴿ وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيرا ﴾ . وإنما كان اتخاذ الولى بسبب دفع الذل ، لأن اتخاذ الحليف

---

(١) انظر مثلا القاموس واللسان « جمر » .

وقبول مبدأ التحالف يعنيان الاعتراف بالضعف ضمنا . ولا ننسى أن اتخاذ الولي هنا ينطلق من زاوية اتخاذ الولد والشريك ، وهي الإحساس بالحاجة الماسة للعون الخارجي . وقد تعالى الله علوا كبيراً عن الحاجة للولد أو الشريك أو الوليّ ، فهو الذى يستحق الحمد وهو الذى يستحق التكبير . ويلاحظ أن التكبير أبلغ لفظة للعرب فى معنى التعظيم والاجلال . وأكد بالمصدر تحقيقا له وابلاغا فى معناه[1] .

رُوِيَ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا أفصح الغلام من بنىّ عبد المطلب علمه هذه الآية : ﴿وقل الحمد الله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيرا﴾[2] فما أحرانا أن نتأسى بالمصطفى صلى الله عليه وسلم .

---

(١) البحر المحيط ، ٩١/٦ .
(٢) البحر المحيط ، ٩١/٦ .

# الخاتمة

ابتدأت الدراسة فى الصفحات السابقة بالإسراء والموضع الذى ابتدأ منه وزمانه ولماذا لم تتحدث السورة الكريمة عن المعراج بعد الإسراء ، وحيث ان جوهر الرسالات السماوية واحد ، والشام أرض الأنبياء ، لذا كان الإسراء بالمصطفى صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام بمكة المكرمة الى المسجد الأقصى بالقدس الشريف دليلا على هيمنة الإسلام على الديانات السماوية قبله ووراثة المصطفى صلى الله عليه وسلم لمقدسات تلك الأديان . وأكبر دليل على ذلك أن الآية الكريمة تستعمل لفظة مسجد وليس أية لفظة أخرى تدل على مكان العبادة فى اليهودية والنصرانية اللتين لهما علاقة من نوع ما بأرض الشام . علما بأن القرآن الكريم لا يتحرج من استعمال الألفاظ الدالة على أماكن العبادة فى اليهودية والنصرانية فقد جاء ذلك فى الآية الأربعين من سورة الحج .

وبناء على منطوق الآية الكريمة وعلى ما جاء فى الصحيح ، رجحنا أن الإسراء كان من المسجد الحرام ذاته كما رجحنا أن الإسراء وكذلك المعراج ، كانا بجسد المصطفى صلى الله عليه وسلم وروحه . ولو أن الأمر كان مجرد رؤيا لما اهتم كفار مكة للإسراء كل ذلك الاهتمام ولما ارتد بعض ضعاف الإيمان .

ثم تحولنا الى موسى عليه السلام وبنى إسرائيل وحاولنا تبيين الأسباب فى عدول السورة الكريمة الى الحديث عن موسى عليه السلام وليس عن المعراج الذى يعتبر من الإسراء كظله . وتكلمنا عن التوراة التى أنزل الله تعالى على موسى عليه السلام من زاوية الصفات التى تشترك فيها كل الكتب السماوية التى تدعو الى توحيد الله تعالى وعبادته وحده لا شريك له وتهدى للطريقة التى هى أقوم . وكانت النظرة لبنى إسرائيل من زاوية كونهم أهل كتاب سماوى بطبعه أكثر من الخوارق المادية عمرا، فهم مسئولون عن موقفهم منه . والحقيقة أن افساد بنى إسرائيل فى الأرض وتعاليهم تعاليا كبيرا هما المسيطران

على أجواء هذا القسم من السورة الكريمة وقد درسنا ذلك تحت عنوان : إفساد بنى اسرائيل وانتقام الله تعالى منهم . وحاولنا تبيين السبب فى انتقام الله تعالى من بنى اسرائيل مرات ومرات ، وهو أنهم أساسا أهل كتاب سماوى . ومع أنه عز وجل لم يتكفل بحفظ هذا الكتاب ، فإنه على كل حال أطول عمرا من المعجزات المادية والخوارق ، وبسبب تركهم له وراءهم ظهريا كان الانتقام منهم كل مرة عنيفا .

وحيث إنّ أقرب حلقة فى سلسلة إفساد بنى اسرائيل فى الأرض وتعاليهم على عباد الله تعالى هو ما فعلوه ويفعلونه الآن بالمسلمين فى فلسطين العربية المسلمة من تقتيل وتشريد وتعذيب وطرد لهم من ديارهم وتحريق للمسجد الأقصى والسعى الى تهويد مدينة القدس مسرى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم الوريث الشرعى لمقدسات الأديان السماوية السابقة لأنّ الإسلام ناسخ لها ومهيمن عليها . وبذلك صدق على بنى اسرائيل قوله تعالى فى هذه السورة : ﴿ وان عدتم ﴾ أى وان عدتم إلى الإفساد فقد بقى أن يتحقق باذن الله تعالى وحسب وعده قوله عز من قائل خطابا لهم : ﴿ عدنا ﴾ أى عدنا الى الانتقام منكم جزاء إفسادكم فى الأرض وتعاليكم على عباد الله تعالى .

وسيكون باذنه تعالى الانتقام من بنى اسرائيل هذه المرة على يد عباد الله تعالى أولى بأس شديد ﴿ أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ﴾ سيكون باذنه تعالى على يد جند لله تعالى شعارهم لا اله الا الله محمد رسول الله[1] على يد أولئك الذين قال الله تعالى عنهم فى كتابه العزيز : ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود . ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما » .

وحاولنا فى صورة أكثر اتساعا تبيين الحكمة من استعمال لفظة مسجد مرة ثانية والعدول عن أية لفظة أخرى تدل على أماكن العبادة فى

---

(١) ستكون باذنه تعالى هذه هى راية الجيش الاسلامى لتحرير القدس وفلسطين وكل بلد اسلامى .

الديانتين اليهودية والنصرانية وهى أن الدين عند الله الاسلام ، وأنه ناسخ للديانات السماوية قبله وأن محمدا صلى الله عليه وسلم الوريث الشرعى لمقدسات الديانات السماوية السابقة ، وأن القرآن الكريم مهيمن على الكتب السماوية قبله ، وأن المسجد الأقصى بالقدس الشريف الذى أسرى اليه خاتم الأنبياء والمرسلين والمكان الذى باركه الله عز وجل حق للمسلمين أولا بنص الآية الكريمة التى تستعمل لفظ مسجد بالذات الدال على مكان العبادة فى الإسلام . وعليه لا يجوز للمسلمين أن يتخلفوا عن الجهاد فى سبيل الله أو يتهاونوا فى إعداد العدة الكاملة لاستعادة أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين والأمكنة حوله التى بارك لله تعالى فان ساعة الجهاد آتية لا ريب فيها ﴿ ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز ﴾ (١)

وحيث إنّ لخاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وسلم خاصّةً مع بنى اسرائيل تجارب قاسية ومريرة ، وقد نصره الله تعالى عليهم نصرا مؤزرا ونزل فى ذلك قرآن كثير . وحيث إننا نحن المسلمين نستطيع أن نكوّن منهجا متكاملا مأخوذا من تجارب سيد المرسلين مع القوم ، بقصد أن نطبقه لاستعادة أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين وتحرير كل بلد اسلامى ، فقد حاولنا تحت عنوان « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة » وضع الخطوط العريضة لهذا المنهج المتكامل عن طريق دراسة تجاربه صلى الله عليه وسلم مع اليهود بعد الهجرة .

وعلى الرغم من حرصه صلى الله عليه وسلم وقد آخى بين المهاجرين والأنصار على أن يعرّف اليهود كلا من حقوقهم وواجباتهم فانهم أظهروا العداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمسلمين ونكثوا العهد ونقضوا ذلك الكتاب الذى كتبه صلى الله عليه وسلم وعين فيه حقوق اليهود وواجباتهم . ووقف مع اليهود إخوانهم المنافقون . وثمة جانب آخر على درجة كبيرة من الأهمية فى هذه القضية المصيرية علينا أن نعيه جيدا كى نأخذ حذرنا وهو أن بعض اليهود على عهد المصطفى صلى الله عليه وسلم تظاهروا بالإسلام وتسنى لهم بذلك أن يندسّوا فى صفوف المسلمين بقصد الإفساد والصدّ عن سبيل الله وضرب الإسلام فى الصميم . وهذه هى عادة اليهود فى كل زمان ومكان فليأخذ المسلمون حذرهم خاصة وأنهم الآن فى حرب عوان وسافرة مع أعداء الله تعالى .



(١) الحج ٤٠

وكان يهود بنى قَيْنُقاع أول من نقض العهد من يهود فحاصرهم المصطفى صلى الله عليه وسلم خمس عشرة ليلة حتى نزلوا على حكمه ونزل فى تلك الحوادث قرآن كريم .

وتخلصت كتيبتان فدائيتان أنصاريتان باذن من المصطفى صلى الله عليه وسلم من شيطانى يهود اللذين آذيا المسلمين أذى بليغا وهذان الشيطانان هما كعب بن الأشرف وكان من نصيب الكتيبة الفدائية الأوسية . وسلام بن أبى الحقيق وكان من نصيب الكتيبة الفدائية الخزرجية .

وكان بنو النَّضير الجماعة الثانية التى نقضت العهد من يهود فقد أرادوا قتل المصطفى صلى الله عليه وسلم بإلقاء صخرة من إحدى الدور عليه وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر من السماء فأمر بالتهيؤ لحرب بنى النضير والسير اليهم فتحصن بنو النضير فى الحصون .

تنبّه أخى المسلم الى أنّ المصطفى صلى الله عليه وسلم يجعل دائما معاركه فى أرض الأعداء ولا يسمح بالعكس مطلقا، وأنّ طبيعة اليهود دائما التحصّن والمحاربة من وراء الجُدُر فلا يقوون على المواجهة وجها لوجه قال تعالى فى سورة الحشر(١) التى نزلت فى هذه المناسبة كاملة : ﴿ لا يقاتلونكم جميعا الا فى قرى محصنة أو من وراء جدر . بأسهم بينهم شديد . تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون ﴾ .

ومع أن المنافقين اخوان اليهود ، حرضوا اليهود على التمنّع والقتال ، فقد خذل الله تعالى كلا الفريقين وأخيرا سأل بنو النضير رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجليهم ويكف عن دمائهم على أن لهم ما حملت الابل من أموالهم إلاّ السلاح فخرجوا الى خيبر ومنهم من سار الى الشام .

وتمثلت الصورة الجماعية الثالثة فى تحالف بنى قريظة مع الأحزاب . وبعد أن هزم تعالى الأحزاب وَحْدَهُ ورجع المصطفى صلى الله عليه وسلم الى المدينة صباحا أتى جبريل عليه السلام ظهرا فقال أو قد وضعت السلاح يا رسول الله ؟ قال نعم . فقال جبريل : فما وضعت

الملائكة السلاح بعد وما رجعت الآن الا من طلب القوم . إن الله عز وجل يأمرك يا محمد بالمسير الى بنى قريظة فانى عامد اليهم فمزلزل بهم فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم مؤذنا فأذن فى الناس : من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر الا ببنى قريظة . وحاصرهم المصطفى صلى الله عليه وسلم خمسا وعشرين ليلة نزلوا بعدها على حكمه فحكم فيهم سعد بن معاذ الذى حكم فيهم — كما قال المصطفى صلى الله عليه وسلم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة — بأن تقتل الرجال وتقسم الأموال وتسبى الذرارى والنساء . وقد نزل فى ذلك قرآن . قال تعالى فى سورة الأحزاب(!) ﴿ وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا . وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطئوها وكان الله على كل شىء قديرا ﴾ .

وحاصر المصطفى صلى الله عليه وسلم أهل خيبر واستولى على حصونهم وصالحهم على نصف الأموال واشترط عليهم : « على أنا إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم » وصالحه أهل فدك على مثل ذلك .

فلما كانت خلافة عمر رضى الله تعالى عنه بلغه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى وجعه الذى قبضه الله فيه : لا يجتمعن بجزيرة العرب دينان . ففحص عمر ذلك حتى بلغه الثبت فأخرج من اليهود من لم يكن عنده عهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وبسبب اعتدائهم بعد ذلك على بعض المسلمين وشيوع جريمة الزنى بينهم قرر عمر رضى الله تعالى عنه سنة عشرين من الهجرة إجلاء يهود خيبر . كما أجلى فى السنة نفسها يهود نجران الى الكوفة .

وبسبب إجلاء اليهود هدأت الأمور تماما . وبذلك يثبت من هذا الدرس التفصيلى البليغ أن علاج اليهود اخراجهم عنوة .

وتحت عنوان موعظة وذكرى حاولنا بعد تبيين السبب الذى من أجله انتقم الله تعالى من بنى إسرائيل مرات عدة أن ننبه الى أن المسلمين قد أكرمهم رب العزة بالقرآن المجيد الذى تكفل بحفظه الى أن يرث عز وجل الأرض ومن عليها . فواجب المسلمين أن يقدروا هذه النعمة حق قدرها وأن يسيروا وفق تعاليم الكتاب العزيز والسنة

المطهرة والا كان الدرس قاسيا والامتحان عسيرا . أما اذا طبقوا تعاليم السماء فانهم خليقون بأن يحقق الله تعالى وعده فى حقهم .

وبعد الحديث عن التوراة كان من الطبيعى أن يكون الحديث عن القرآن الكريم الذى يهدى للتى هى أقوم . والحقيقة أن هذه السورة الكريمة تفوز بالنصيب الأكبر فى هذا الشأن. فقد ترددت فيها لفظة القرآن أكثر من غيرها . وذلك يعنى أنها تعنى بالسلوك الإنسانى وهذا صحيح وهى عناية على مستوى الفرد والجماعة والأمة .

وتبين أن المجموعة التالية من الآيات يميزها ظاهرة التقابل فى المعانى والاختلاف فى الصفات . فالإنسان بطبعه عجول ومن مظاهر ذلك أن يدعو بالخير والشر . وثمة آيتا الليل والنهار ، والمحسن والمسىء ، ومن كان يريد العاجلة ومن أراد الآخرة .

ثم تحولنا الى آيات الحكمة التى تعنى بالسلوك الإنسانى . وهى متضمنة لاثنى عشر أمرا ونهيا رئيسيين وكلها غير قابل للنسخ فى كافة الشرائع السماوية . وقد حاولنا تبيين الحكمة فى ترتيب الأوامر والنواهى فى ذلك النسق . وهذه هى حبات عقد الحكمة : النهى عن الإشراك بالله تعالى وعقوق الوالدين . إيتاء ذى القربى حقه والنهى عن التبذير . النهى عن قتل الأولاد خشية الإملاق . النهى عن الاقتراب من جريمة الزنى . النهى عن قتل النفس التى حرم الله الا بالحق . النهى عن الاقتراب من مال اليتيم الا بالتى هى أحسن والأمر بالوفاء بالعهد . وفاء الكيل والوزن بالقسطاس المستقيم . النهى عن اقتفاء الإنسان ما لا علم له به . النهى عن المشى فى الأرض مرحا .

وحينما نسأل عن القضية التى هى الأولى بين قضايا الحكمة لأن يعود إليها الحديث مرة أخرى أو الى فرع منها ، فالجواب معروف ولا شك . إنها قضية التوحيد التى ذكرتها دون غيرها آيات الحكمة مرات ثلاثا . ومن هنا عرضت السورة بعد ذلك لزعم العرب أن الملائكة بنات الله وردت عليهم . وقد تورطت تلك الفئات فى كل هذه الحيرة لأنها لا تؤمن بالبعث والنشور . وإن تصريف القول فى القرآن الكريم من قبيل الدعوة بالتى هى أحسن . وقد جاءت بعد ذلك الإشارة صراحة فى أمر عباد الرحمن بأن يقولوا للمشركين العبارة التى هى

أحسن، كما كانت العودة الى تصريف القول والتحذير من ابليس اللعين ولكنّ أكثر بنى آدم لم يمتثلوا لتعاليم السماء، وقد عرضت السورة الكريمة لأنواع من عمى الكافرين وكيفية تصدّى المهتدين لهم وجزاء هؤلاء الضالين يوم القيامة • ومن مظاهر العمى السؤال عن الرّوح وطلب كفار مكة مجموعة من الخوارق لأنهم وهموا أنه صلى الله عليه وسلم حينما أخبرهم أنه رسول رب العالمين فقد خرج بذلك من دائرة البشر ، مع أنه يقول دائما بأنه عبد لله تعالى ورسوله • وقد اقتضى الأمر توضيح الحقيقة للكافرين بدرجة أكبر • وإذا كان المنصرفون عن القرآن الكريم يستحقون أن يذهب الله تعالى بالقرآن الكريم من الصدور ومن الصّحف ، فانّ المقبلين على الله تعالى وعلى كتابه العزيز يستحقون أن يبقى القرآن الكريم وينزل ما بقى منه • وحيث انّ رحمة الله تعالى قد سبقت غضبه فقد بَقِيَ القرآن الكريم فى الصدور والصحف وتكفل رب العزة بحفظه وتحدى به الثقلين الإنس والجن •

وحيث إنّ المصطفى صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة خاصة بحاجة ماسة لتثبيت فؤاده صلى الله عليه وسلم ، فان القسم الأخير من السورة الذى يمكن أن ينزل من السورة بمنزلة الخاتمة ــ على أساس أن ذكر الإسراء بمثابة المقدمة ــ قد عُنِيَ بتسلية المصطفى صلى الله عليه وسلم والتسرية عنه • وقد تمثل ذلك فى عودة الحديث لموسى عليه السلام وآياته التسع وللقرآن الكريم وبعض متعلّقاته من صلاة وتلاوة ودعاء وحمد وتكبير وتنزيه لله تعالى عن كل ما لا يليق بجلاله وكماله جلّ وعلا•

## فهرست الموضوعات


| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| المقدمة | ٧ |
| الإهداء | ٩ |
| توطئة | ١١ |
| (١) الإسراء | ٢١ |
| الموضع الذى ابتدأ منه الإسراء | ٢٣ |
| زمان الاسراء وطبيعته | ٢٥ |
| لماذا لم تتحدث السورة عن المعراج بعد الإسراء ؟ | ٢٩ |
| (٢) موسى عليه السلام وبنو إسرائيل | ٣١ |
| موسى والكتاب | ٣٣ |
| افساد بنى اسرائيل وانتقام الله تعالى منهم | ٣٥ |
| الحكمة من استعمال لفظة مسجد | ٤٤ |
| اليهود يظهرون العداوة للإسلام والمسلمين | ٥٠ |
| المنافقون إخوان اليهود | ٥٢ |
| من اليهود من يتظاهر بالإسلام | ٥٣ |
| اليهود يعادون من أسلم منهم | ٥٤ |
| اليهود ينقضون العهد ( بنو قينقاع ) | ٥٥ |
| عمل فدائى | ٥٨ |
| اجلاء بنى النضير فى سنة اربع | ٦٠ |
| يهود بنى قريظة يحالفون الأحزاب | ٦٣ |
| المسير الى خيبر وامر فدك | ٦٥ |
| موعظة وذكرى | ٦٧ |
| (٣) القرآن يهدى للتى هى أقوم | ٧٢ |
| (٤) ظاهرة التقابل والاختلاف فى الصفات | ٧٥ |

| الموضـــوع | الصفحة |
|---|---|
| الإنسان عجول يدعو بالخير وبالشر . . . . . | ٧٥ |
| آيتا الليل والنهـــار . . . . . | ٧٦ |
| المحسن والمسىء مسئولان . . . . . | ٨٤ |
| من كان يريد العاجلة ومن أراد الآخرة . . . . . | ٩٥ |
| (٥) آيـــات الحكمـــة . . . . . | ٩٩ |
| النهى عن الاشراك بالله وعقوق الوالدين . . . . . | ١٠٠ |
| ايتاء ذى الحق حقه والنهى عن التبذير . . . . . | ١١٧ |
| النهى عن قتل الأولاد خشية املاق . . . . . | ١٣١ |
| النهى عن الاقتراب من جريمة الزنى . . . . . | ١٣٥ |
| النهى عن قتل النفس التى حرم الله الا بالحق . . . . . | ١٥٠ |
| النهى عن الاقتراب من مـــال اليتيم الا بالتى هى احســـن والأمر بالوفاء بالعهـــد . . . . . | ١٥٤ |
| أوفوا الكيل وزنوا بالقسطاس . . . . . | ١٥٨ |
| لا تقف ما ليس لك به علم . . . . . | ١٦١ |
| لا تمش فى الأرض مرحا . . . . . | ١٦٦ |
| كل ذلك كان سيئة عند ربك مكروها . . . . . | ١٧٤ |
| خاتمة عقد الحكمة . . . . . | ١٧٨ |
| (٦) زعم العرب أن الملائكة بنـــات الله والرد عليهم . . . . | ١٨٢ |
| (٧) حجاب مستور بين قارىء القرآن ومنكرى البعث . . . . | ١٨٦ |
| . . . | |
| (٨) لماذا لا يؤمنون بالآخـــرة ؟ . . . . . | ١٩٣ |
| (٩) عباد الرحمن يقولون التى هى أحسن . . . . . | ١٩٨ |
| (١٠) تدرج فى الكلام حيث الأعلى . . . . . | ٢٠١ |
| (١١) من مظاهر تصريف القول . . . . . | ٢٠٥ |
| (١٢) تحذير من إبليس اللعين . . . . . | ٢١٢ |
| (١٣) ليس كل بنى آدم امتثلوا لتعاليم السماء . . . . . | ٢٢٥ |
| (١٤) أنواع من العمى وكيفية تصدى المهتدين لها وجزاء المضلين . | ٢٤٩ |

| الموضـــوع | الصفحة |
| --- | --- |
| (١٥) يسألونك عن الرّوح . . . . . . . . . . | ٢٧٣ |
| (١٦) رحمة الله تعالى تسبق غضبه والتّحدّي بالقرآن . . . | ٢٧٩ |
| (١٧) كفار مكة يطلبون مجموعة من الخوارق وأسباب ذلك وجزاؤهم | ٢٩٧ |
| (١٨) موسى عليه السلام وآياته التسع . . . . . . . | ٣١١ |
| (١٩) عودة للقرآن الكريم ومتعلقاته . . . . . . . . | ٣١٤ |
| الخاتمـــة . . . . . . . . . . . . . . | ٣٢٥ |

رقم الايداع ٢٢٨٢ / ١٩٧٨

الترقيم الدولى ٨ـ٩٠ـ٧٠٥٣ ISBN